المحطة الأخيرة..

هستيريا

عنوان الكتاب: المحطة الأخيرة..هستيريا
التأليف: ريم ياسر
مراجعة وإخراج فني: عمرو وسالم سواح
تصميم الغلاف: علي فتحي
رقم الإيداع: 2019/ 17933
الترقيم الدولي: 978 -977 -6639 -62 -1
الناشر: دار تويتة للنشر والتوزيع
www.facebook.com/Tweetforpublish
tweetpublishing2017@gmail.com
٧ش محمد أبوالعطا- محطة العريش-فيصل- الجيزة
رئيس مجلس الإدارة: م/ أحمد عبد العزيز
المدير العام: أ/ رشا العمري
01017799799
01225762066

تويتة
Tweeta
للنشر و التوزيع
#غرّد_للعالم

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

المحطة الأخيرة..

هستيريا

ريم ياسر

تحذير

" تلك الصفحات القادمة تطوي داخلها العديد من الحالات النفسية التي قد يمر بها الإنسان خلال حياته، كما توجد نماذج لشخصيات قد يضطر المرء للتعامل معها في أي مكان، لن تكون الأحداث بالهزلية أو الكوميدية؛ لذلك على أصحاب القلوب الضعيفة الابتعاد تمامًا عن ذلك الكتاب لأنه ربما يصيبهم بالقلق أوالاكتئاب، لذلك وجب التنويه ".

تحياتي.

الإهداء

إلى كل لحظات الضعف وساعات اليأس.

إلى أيامٍ شعَرت فيها بالخوف والقلق.

إلى أوقات كثيرة تعرفت فيها على نفسي فوجدتني أجلس وحدي في زاوية مظلمة وباردة على كرسي خشبي في حين أنني أرتجف فزعًا.

إلى أسرتي التي طالما تحملت نوبات غضبي وعِنادي.

إلى كل من تحطمت آماله وأحلامه على مذبح الحياة.

إلى هؤلاء الذين تنزف قلوبهم آلامًا ولا يتحدثون.

إلى كل من تذوق مرارة الخيبة والانكسار، وكذلك إلى من دق الخوف والقلق بابهم على حين غفلة منهم فوجدوا أنفسهم في منفًى قاسٍ سجنهم فيه المجتمع.

إلى كل هؤلاء المناضلين في صمت في أثناء رحلاتهم يساق إليكم وإلى نفسي ذلكم الحديث.

إن النفوس البشرية عالمٌ غريبٌ يمتلئ بالأسرار والخبايا، وقد تدخل النفس منا أطوارًا مختلفة من الحالات النفسية تسلك الأحاسيس فيها طرقًا عدة مُعتمدًة في ذلك على عاملين أساسيين هما القلب والعقل.

يحكى أن القلب قد جاء ذات يومٍ وضلّ، فتبعثر كورقة شجر خريفية في ليلة عاصفة ثم دُهس تحت سيارة أحد المارة. وسواء إن كان ملطخًا بالماء أو الدماء فإنه لم يفقد نبضه ولم يتوقف أبدًا عن الحياة، أما العقل ففي ذات مرة ضل فانقلب كل شيء رأسًا على عقب، توقّفت الأشياء وتعطلت عقارب الساعة وسكت الضجيج الذي كان يملؤ العالم، هدأ الصخب وحل صمتٌ مخيف، وفجأة ظهر باب ضخمٌ أخذ يقترب ببطء شديد كُتب عليه: "من..أنا؟" ثم يُفتح على مصراعيه مرة واحدة وإذا بصوتٍ من ورائه يناديك ويقول: إنها فقط البداية.

تحاول الهرب سريعًا، لقد اختفى كل شيء، لم يعد هناك أناس أو سيارات، تهاوت الطائرات وتلاشت ناطحات السحب، يتحول كل ما حولك إلى رماد فلا تجد سوى قطارٍ واحد، تهرع إليه وتستقله هربًا من تلك الوحشة، فتجد به أربعة آخرين، فتاة عشرينية يصحبها شاب أنيق في مثل

سنها، ورجلًا آخر ثلاثيني طويل القامة نحيف الجسد ضُمت يداه إلى صدره واحدة تلامس الأخرى كعلامة (إكس) أو الخطأ لتُعطيا إيحاءً بمحاولة حماية نفسه من شيء ما، وأخيرًا طفلة صغيرة قد ضلت طريقها ولم تجد أمامها سوى ذلك القطار، لكن يختل توازنه في أثناء سيره ويغير من مساره فجأةً، تكتشف أنه قد فقدَ مكابحه وبدأت سرعته في الازدياد، فتحاول أن تعيده إلى صوابه لكنه مع الأسف لا يستجيب ويرمي بكم إلى المحطة الأخيرة، تلك التي لم يكن أي منكم يود الوصول إليها أبدًا فإما أن تنزلوا وتحاولوا النجاة بأنفسكم مما قد تقابلونه أو أن تظلوا ماكثين فيه إلى أن ينفجر، تختارون جميعكم النزول. وما إن تركتم القطار وخطتْ أقدامكم خطواتها الأولى في المحطة الخاوية والخالية من كل شيء حتى سمعتم الإذاعة الداخلية تقول: "**مرحبًا بكم في المحطة الأخيرة.. هستيريا**".

بين السماء والأرض

حين تشرق الشمس وتبدأ بإضفاء ظلالها الذهبية على شتى بقاع الأرض المختلفة، يبدو وقتها كل شيء رائعًا حتى وإن كان غير ذلك في حقيقته، لكن ثمة سحر ما يطول كوكبنا مع كل فجرٍ، يجمل الأشياء، يسكن الآلام ويخمد الحرائق والحروب في كل مكان فتتحول إلى رماد بارد.

وبينما الأرض تشتعل غضبًا في الليل وكادت أن تُدمَّر، تصحو خامدة هادئة، ولم يكن ذلك الموقع الضخم ببعيد عن هذا السحر.

فناء واسع، أطفال في زيهم المدرسي يمشون في خطوات غير منتظمة، معلمون ومعلمات يتبادلون التحيات الصباحية والسلام، بنات يافعات يأتين مبتهجات مسرعات بعضهن نحو بعض ليثرثن بالحكايات والنمائم، وملعب كرة متوسط الحجم، تقام فيه مباراة صباحية سريعة قبل أن تطلق تلك الصفارة التي تنذر بأن طابور الصباح قد أوشك على البدء، تلاميذ من كل حدب وصوب يأتون ويصطفون في نظام.

أما هناك خلف الستار فتقع غرفة الإذاعة، يجلس بها عدد من الطلاب، يراجعون أدوارهم حتى لا يقع أي منهم في الخطأ أمام ذلك الحشد من الجمهور، لن يسلم التلميذ منهم إذا زلّ لسانه أو أخطأ، ثم يبدأ الطابور المدرسي بعد كل هذه الترتيبات تزامنًا مع وصول نُظار المراحل الثلاث، الابتدائية والإعدادية والثانوية.

في طابور الصف السادس الابتدائي للبنات وقبل أن تبدأ الإذاعة المدرسية بدقائق معدودة، تعالت ضحكات ستٍّ من البنات في عفوية ومرح، لتقطعن ذلك الصمت الذي بدأ يسيطر على الأجواء وكانت من بينهم تلك الفتاة ذات الشعر الأسود، رُفع إلى أعلى فصار أشبه بذيل الحصان العربي الأصيل، أما وجهها الخمري فكان يعلوه ابتسامة بريئة ذات بريق خاصٍّ، أما عيناها البنيّتان فتغمرهما الشقاوة والأمل من كل اتجاه، إنها (سهر مصطفى أحمد)، فتاة بسيطة لم تكن تدري أن حياتها التي تشبهها في البساطة باتت على وشك التغير.

كانت سهر وزميلاتها الخمسة ذوات سطوة وشهرة في المدرسة على الرغم من صغر سنهن، لم يكن ذلك ناتجًا عن شغب أو سوء أدبٍ،بل بسبب روح المرح والدعابة التي كانت تسيطر على تلك المجموعة، أحبهن جميع المدرسين وكذلك أغلب طلاب المدرسة من المراحل المختلفة. وذات يوم حل على المدرسة طالب جديد، بدت عليه ملامح التوتر والريبة التي تتملك من أي طالب مستجد في أي مدرسة، نظرًا لأنه يكون العنصر الوحيد الدخيل على تلك المؤسسة وباقي الطلاب يكونون على معرفة سابقة، التحق ذلك الطالب بطابور الصف السادس الابتدائي للبنين، كان التلاميذ في هذا الصف يعرف بعضهم بعضا منذ ثلاث وأربع سنوات، أي أن أغلبهم معًا منذ الصغر ربما منذ الصف الثاني أو الثالث الابتدائي، كان ذلك ينطبق على الطلاب جميعهم من البنات والبنين، بدأوا معًا فأصبحوا كالإخوة، أما ذلك المستجد فقد حضر طابور الصباح، شاهده الجميع وظلوا ينظرون إليه في تساؤل، وبدأت الهمهمة بين التلاميذ هنا وهناك،

متسائلين مَن هذا ومن أي مدرسة جاء ولمَ انتقل إلى مدرستنا متأخرًا بعد بدء الدراسة بثلاثة أسابيع؟

ومثلما كان لسهر وصديقاتها الخمس صيت وشهرة، كان لخمس من البنين الأمر نفسه، تمتعوا هم أيضًا بالحس الفكاهي وأحبهم المعلمون والمعلمات، وحين دخل الطالب الجديد الفصل، أثار فضولهم وأرادوا أن يعرفوا عنه كل شيء، لكنهم لم يتخذوا خطوة واحدة في سبيل ذلك، ترقبوه من بعيد وفضلوا أن ينتظروا تأقلمه على الأجواء الجديدة، فربما يسرد هو حكايته بنفسه. كان ذلك التلميذ المجهول ذا بشرة بيضاء فيها شيء من الاحمرار، عيون زرقاء وشعر يميل إلى الشُقرة، هو الطالب المستجد (سليم نور الدين).

مر يومه الأول مرور الكرام تعرف على عدد قليل من الزملاء وتسلم كتبه المدرسية وقام المدرسون بإعطائه ورقة مدون فيها ما فاته من دروس في الأسابيع الثلاثة الأولى من الدراسة حتى يذاكرها ويواكب بقية زملائه.

وفي اليوم الثاني تحديدًا في حصة مادة اللغة الإنجليزية، طلب منه أستاذه أن يقرأ بصوت مرتفع بعضا من سطور القصة، وهنا كانت المفاجأة عندما بدأ بالكلمات الأولى فتعجب الجميع من براعته في نطق الإنجليزية، يتحدث بطلاقة شديدة وكأنه من أهلها، رأى التساؤلات واضحة في أعين الجالسين حتى أستاذه كان ينظر إليه في اندهاش، لذلك قرر أن يجيبهم، أخبرهم بأنه قد ولد في إنجلترا لأمّ فرنسية الأصل وأب مصرى، وقد عاش هناك حتى سن الثماني سنوات ثم قررت الأسرة أن تنتقل لموطن الأب فشدوا رحالهم إلى مِصر.

انتشر ذلك الحديث المختصر انتشار النار في الهشيم، وبدأ سليم يتأقلم على الأوضاع وسرعان ما صادق زملاء فصله كلهم ولم يقف صيته عند هذا الحد فقد اندمج سريعًا وصار صديقًا مقربًا للخمس تلاميذ ذوي الشهرة الأكبر في المدرسة بل إنه في واقع الأمر بات سادسهم، ونتيجة لذلك ساعده أصدقاؤه الجدد في التعرف على باقي تلاميذ صفه من البنين والبنات، واتضح أنه ذو شخصية جذابة وحس فكاهي رائع، لكن ظلت مجموعة سهر المكونة من ست بنات بعيدة عنه، يترقبن الأمور عن بُعد، لم يعطينه الأمان الكامل فما زلن لا يعرفنه جيدًا.

ذات يوم أعلنت المدرسة عن إقامة مسابقة لأوائل الطلبة، تقليد قديم قررت المدرسة اتباعه فجأة حتى تشجع روح التعاون بين التلاميذ وتبث فيهم حب العلم والتنافس الشريف، وقد تم الاتفاق بين المدرسين على أن تكون المسابقة نهاية كل شهر، والفريق الفائز يُمنح جائزة كبيرة تقديرًا لمجهود الطلاب وتفوقهم على أن تعقد المسابقات في جميع المراحل، وبالفعل أتت الامتحانات لهذا الشهر وظهرت النتائج وأُعلن عن أوائل الفصول الذين سيشاركون في المسابقة.

اتجهت مُدرسة مادة اللغة العربية نحو فصل البنات من الصف السادس الابتدائى، حيث التلميذات ثم أخرجت ورقة صغيرة بها الأسماء التي ستمثل فصلهن في المسابقة، وكانت من بين هؤلاء المتفوقات (سهر مصطفى أحمد)، جلست سهر مع زميلاتها في أثناء فسحة ذلك اليوم ليضعن خطة للعمل والمذاكرة، فالمسابقة لا يفصلهن عنها سوى ثلاثة أيام فقط، اتفقن الخمس على أن كل واحدة منهن ستكلّف بمادة كاملة تذاكرها من الألف إلى الياء، قسمن المواد حسب تفوقهن.

جاء يوم المسابقة وأُخذ فصلا البنين والبنات إلى المكتبة التي ستعقد فيها المسابقة، اصطفت الكراسي بعضها وراء بعض كالسينما وأتي فراش المدرسة بطاولتين كبيرتين، واحدة لكل فريق، وحضر المدرسون جميعًا حتى يكونوا شهودًا على تلك المنافسة النبيلة، أخرج مدرس اللغة الإنجليزية ورقة بها عدد من الأسئلة وحث الحضور على التزام الصمت حتى تبدأ المسابقة، حضر الفريقان وجلسوا متواجهين، ووجدت سهر أن الجالس أمامها من البنين هو ذلك الطالب المستجد (سليم نور الدين)، لقد كان هو أيضا من أوائل هذا الشهر.

بدأت المسابقة وأخذت تشتد بين الفريقين حتى تساوى فريق البنات مع فريق البنين في عدد النقاط، بدت علامات التوتر تظهر على مشجعي الفريقين من التلاميذ ودبت الهمهمة في الجانبين متسائلين ماذا سيحدث الآن؟ هنا قررت اللجنة أن تقوم بطرح بعض الأسئلة العامة على الفريقين، ومن حسن الحظ كانت سهر تتمتع بقدرٍ كبير من المعلومات العامة، لقد كانت من عاشقي القراءة والبحث، حينها سكت الجميع وطرح الأستاذ سؤالًا عن الحضارة اليونانية، فلم يعرفه أحد من فريق البنين، لكن سرعان ما رفعت سهر إصبعها وطلبت الإذن بالإجابة، بالفعل كانت إجابتها صحيحة وفاز فريق البنات بسبب سهر وانطلقت التهليلات والصيحات الفرحة بفوزهن ونجاحهن، ثم رن الجرس الأخير لليوم وهمّ الطلاب بالانصراف، البنات فرحات بتقدمهن على فريق البنين سعيدات بسهر لكن في مشهد تغلبه الروح الرياضية هنأ جمعهن زملاءهن من البنين والفريق المهزوم، في النهاية كلهم إخوة وسواء النصر أو الهزيمة لن يؤثر ذلك على صداقتهم.

اتجهت سهر نحو باب الخروج من المدرسة وفي أثناء سيرها، سمعت مناديًا، فالتفتت في خفة لتنظر وراءها من الذي يناديها، لتجده سليمًا يهنئها بفوزها وتفوقها، شكرته في لطف وتمشّيا سويا نحو الباب، سألته عن أحواله وعما إن كانت المدرسة تعجبه أم لا، كان ذلك هو أول حوار يُجرى بينهما، وصلا إلى الباب وتصافحا. ومنذ تلك اللحظة ولدت صداقة بريئة بين (سهر مصطفى أحمد) و(سليم نور الدين).

* * *

ما زلت عالقة بين السماء والأرض، تتشبث قدماي بحبل كادت تذوب خيوطه، أحاول الصعود إلى أعلى، لا أستطيع، لا أملك رافعات أثقال حديدية لأستخدمها في تسلق ذلك الجبل، لا يمكنني النظر إلى أسفل فالمنظر من ارتفاعي هذا مخيف ومروع، أحتاج إلى تقويم المسافة بيني وبين الأرض، سأرمي بتلك الصخرة الصغيرة ربما عن طريق سماع صوت ارتطامها بالأرض أستطيع التمييز.

"مذهل"

رميت بها ولم أسمع شيئًا مما يدل على بُعدي عن الأرض كثيرًا، قد أكون على ارتفاع عقار مكون من عشرين طابقا!

بدأ جسدي يتصرف بطريقة غريبة، يرتعش ويعرق، أشعر بالبرد الشديد، فلتهدأ قليلًا أيها الجسد المسكين، سنعد إلى عشرة معًا ١..٢..٣..٤..٥.. شهيق.. بوتيرة أبطأ..٦..٧..٨..٩..١٠.. زفير.

أشعر بالتحسن الآن، بدأ الهدوء يسكن روحي مرة أخرى، ولحسن الحظ وجدت تلك الصخرة بارزة عن الجبل إلى الخارج، لا تبعد عني كثيرًا، يمكنني إسناد حقيبتي على طرفها، قد جف ريقي وأتوق إلى بعض قطرات الماء.

أنزع الحقيبة عني الآن بكل هدوء، لتستقري هنا يا عزيزتي، أتمنى أن تتماسك قدماي جيدًا بالحبل وأن يبقيا مكانهما حتى أستطيع العثور على زجاجة المياه داخل الحقيبة، يدي اليمنى تتشبث بالحبل، سأتعامل عن طريق يدي اليسرى لإفراغ محتويات الحقيبة على سطح تلك الصخرة، لعلني أجد ما يفيدني فيها ويخرجني من مأزقي هذا.

وجدتها! ها هي زجاجة الماء.. أسقط بعض قطرات المياه على شفتي، أبلل حنجرتي الجافة، ما هذا؟ لم يتبقَّ سوى ١٥٠ مللي فقط تبقيني حية؟

قليل من الماء وكثير من العناء!

ساعدني يا رباه..

لنرَ ماذا يوجد لدي في هذه الحقيبة، بطارية صغيرة متوسطة الإضاءة.. سكين سويسري.. ملاءة تُفرش على الأرض.. كيس بلاستيكي به قليل من المكسرات.. قفازات تسلق الجبال الزرقاء.

رائع كدت أنساها!

أوشك فجر اليوم الثالث على البزوغ، ما زلت أحاول الصعود إلى أعلى والظلام الموحش يكسو كل شيء من حولي، يلتف الحبل حول جسدي، أخطو خطوتين ربما ثلاثا، تنزلق قدمي مرة أخرى فأعود إلى مكاني مثلما كنت.

لا يفصلني عن شروق الشمس سوى ستين دقيقة حسب ساعتي الرياضية التي أرتديها، لقد اشتراها لي جداي قديمًا، على وجه التحديد عند حصولي على شهادة الثانوية العامة، ما زلت أتذكر، لذلك هذه الساعة لها منزلة خاصة في قلبي وأرتديها في كل الرحلات التي أقوم بها.

بدأت عيناي تغفو.. لنعد مرة أخرى، لا يجب أن أسقط أسيرة لرغبتهما في النوم، صفر.. واحد.. اثنان..

سأحاول طرد النوم عنهما، ما زال هناك الكثير من الأحداث في القصة التي أرويها على نفسي منذ ثلاثة أيام لم تُحكَ بعد، هذه وسيلتي الوحيدة للتسلية وحتى لا أستسلم لليأس، أنا عالقة على هذا الجبل اللعين ولا أود أن ألقي حتفي الآن.

* * *

مرت الأيام يومًا تلو الآخر، توطدت الصداقة أكثر بين سهر وسليم وجعلتهما الأيام صديقين مقربين، صارت الأعوام تجر أنفسها عاما وراء عامٍ. وبينما كان الوقت يمضي كان التفاهم والتجانس بين الصديقين يزداد، واندمجت المجموعتان المكونتان من ستة أفراد لكل من مجموعة البنات والبنين لتصبح أسرة صغيرة مكونة من اثني عشر فردًا، علا شأنهم في المدرسة وأخذوا يلونون الأيام بذكرياتهم، بطرائفهم ورحلاتهم، بالمرح والمسابقات والمذاكرة، لكن سعادتهم هذه أثارت غيرة الكثيرين وأشعلت نيران الحقد في قلوب عدد من الطلاب، فكان البعض يحاول بث روح الفرقة والوقيعة بين هؤلاء الأصدقاء ولكنهم لم يلتفتوا أبدًا لمثل هذه الأشياء وظلوا عصبة واحدة ولم يفترقوا.

ذات يوم أصيبت سهر بالتهاب رئوي حاد، غابت عن المدرسة وأثار ذلك الاختفاء تساؤلات أصدقائها من البنين والبنات، حتى اتصلت بها إحداهن وعلمت بشأن مرضها، أخبرت البقية بأمر سهر وأسفوا جميعًا لمرضها.

أما سليم فوجد نفسه مضطربًا، قلقًا ربما أكثر من الآخرين، فمنذ أن سمع بالخبر وبدأت الأيام تتوالى ولم تظهر سهر بوجهها المشرق في المدرسة ولو للحظات أصبح التوتر رفيقه، وانتبه فجأة لنفسه يسألها: "الجميع أسِفٌ وحزين لمرض سهر لكن لماذا أنا الذي يبدو على القلق بهذه الصورة المبالغ فيها؟"، فكر مليًّا في إجابة عن هذا السؤال وهداه عقله إلى أن ذلك بسبب قربهما الشديد وصداقتهما القوية، فهو قد تعود على أن يراها دومًا أو أن يتحدثا لساعات في الهاتف إذا غاب إحداهما عن المدرسة حتى يوافيه بالأخبار والدروس وكذلك تفاصيل اليوم، ودومًا ما كانت تلك

الأحاديث تنتهي بضحك هستيري من الطرفين، أو ربما يرجع السبب لأن منزلهما تفصلهما مسافة صغيرة، فكثيرًا ما يذاكران معًا.

وبينما كانت سهر تعاني ارتفاع الحرارة وآلام الحلق والعظام، شعرت بألمٍ آخر معنوي، كانت حزينة لتغيبها عن صفها وعن أصدقائها، ولكنها لاحظت أن تفكيرها يتجه بها نحو سليم وسألت نفسها: "لماذا أشعر أن هناك شيئًا مفقودًا في يومي؟، لماذا يقفز سليم إلى تفكيري كثيرًا؟" .

لم تقف كثيرًا في حقيقة الأمر عند هذا السؤال وسرعان ما تخطته، أقنعت نفسها بأنها فقط تفتقد ذلك المرح والضحك اللذين كانا يصنعانهما معًا حيث إنها الآن جليسة الفراش وهي ليست من ذلك النوع الذي يحب الكسل والمكوث في المنزل طويلًا.

صارت سهر تتحسن شيئًا فشيئًا، لكن الطبيب أمرها بالتغيب لأسبوع آخر عن المدرسة حتى تسترد عافيتها.

حل أسبوع دراسي جديد وعادت سهر إلى عافيتها وكذلك إلى المدرسة وسط احتفاء شديد من زملائها ومعلمها، ملأت الفرحة قلبها ولمعت عيناها ربما لأول مرة حتى جعلتهما يتلألآن كالجوهرتين الثمينتين عندما رأت ذلك الحب في أعين الجميع، وكان زملاؤها من البنات والبنين قد اتفقوا على تجهيز احتفال بسيط لسهر بالتعاون مع معلمة التربية الفنية، أحضروا الحلوى والعصائر ثم أتوا بها إلى غرفة الرسم لتتفاجأ بهذا الاحتفال، وبعدما انتهى الحفل الصغير ذهب الجميع ليلقوا عليها السلام متمنين لها دوام الصحة معبرين عن سعادتهم بشفائها وعودتها، انتهى الوقت المخصص للاحتفال ووجب على كل طالب الذهاب إلى فصله، رحل الجميع

ولم يتبقَّ سوى ثلاثة طلاب أعادوا ترتيب الغرفة وتنظيف الأشياء كان من بينهم سليم، ذهب هو الآخر ليلقي عليها السلام بعدما انتهى من إعادة الأمور إلى وضعها الطبيعي، بدا مبتهجًا بعودة سهر سالمة إلى المدرسة، وأخبرتها عيناه التي كادت أن تخرجا من مكانهما من فرط السعادة أن ثمة شيئًا ما يحدث، لم تكن تعرف ما هو، ولكنها تأكدت أن هناك ما ستكشف عنه الأيام أو ربما السنوات.

لم تكنْ سهر تعتز بشيء أكثر من علاقتها بصديقاتها وأصدقائها، أخذت تلك العلاقات حيزًا كبيرًا من قلبها، شغلت حياتها بكل تفاصيلها، ولم يكن لروحها الطاهرة أمنية سوى أن تستمر تلك الصداقات معها إلى نهاية العمر، لكن يبدو أن للحياة رأيًا آخر، بخلت الأيام على تلميذة يافعة في الصف الأول الثانوي أن تستمر سعادتها هذه وأرادت أن تُذيق قلبها الهش مرارة الفراق مرة أخرى.

جاءها الخبر المشؤوم ذات يوم، حين أخبرتها خمس من صديقاتها بأنهن راحلات عن المدرسة إلى مدارس أخرى، وقد حاولن جميعًا إقناع أهلهن تأجيل تلك الخطوة أو التخلص منها لكنهن لم ينجحن، اتخذ أولياء الأمور القرار، فالأهل دومًا ما يحاولون البحث عن الأفضل خاصة إن تعلق الأمر بالتعليم، شعرت سهر بالأسى، والحزن الشديد، شعرت بأن قلبها يصرخ وجعًا، كانت هي وصديقاتها مثل العِقد القيم الذي انفرطت حباته فجأة لتذهب كل منهن إلى مكان أو اتجاه لا يعلمه إلا الله.

أحست سهر بأن أجزاء من قلبها قد رحلت معهن، كادت تسمع أنين أشلاء قلبها وهي تتمزق، رأت أمنيتها الوحيدة تتلاشى وهي عاجزة لا تستطيع

فعل شيء، بدأت ضحكاتها تختفي مع الأيام، أصبحت وحيدة فجأة رغم محاولات سليم للتخفيف من حدة الأمر، فبعد رحيل صديقاتهما تفرقت بقية المجموعة ولم تبقَ هناك أسرة صغيرة بعد الآن.

دومًا ما رأت سهر في أحلامها هي وصديقاتها أنهن يتشاركن الأمل والألم، السعادة والجنون، رأتهن يلهون ويضحكن، يكبرن ويشخن معًا، لقد جعلتها علاقاتها بصديقاتها أن تلمس النجوم حقًّا في يوم من الأيام، فألعابهن المجنونة وحكاياتهن المثيرة وضحكاتهن المتعالية وأفعالهن الطائشة ملأت حياتها مرحًا ونشاطًا وسعادة، كانت دائمًا تقول لصديقاتها: "إن ذكرياتنا كثيرة.. وستصبح أكثر وأصدق.. لن يكفيها الكون بمساحاته الواسعة لاستيعابها"، وفجأة بدأت تلك الأمنيات البسيطة في التساقط كحبات الرمل الناعمة من بين يديها.

في حقيقة الأمر لم تكن ردة فعل سهر لانتقال زميلاتها من المدرسة بالمبالغ فيها، لا على الإطلاق، فعندما يتجدد ألم الفراق يكون الوضع مزريًا، أسوأ بكثير مما نتخيل أو نتصور، لقد قُدر لقلب سهر المرور بذلك الألم مرة أخرى.

لم يكن أحد على علم بالكواليس الخفية لحياة سهر مصطفى أحمد تلك الفتاة المرحة، التي تحب أصدقاءها وتعتز بوجودهم في حياتها.

كانت تلك العلاقات تعوضها عن الكثير مما عانته في حياتها، تُنسيها الفراق الأكبر والأشد ألمًا، تخفف عنها الألم الذي جاءها يومًا ودق بابها مباغتًا، ذلك الكسر الذي حدث بجدار روحها، فحاولت ترميمه ولكنها لم تنجح فتركت للأيام مهمة مداواته وإصلاحه.

حين كانت سهر في الصف الأول الابتدائي جاء والداها ودون أية مقدمات حدثاها بأنهما سيتركانها لفترة قصيرة من الوقت، نظرًا لسفرهما إلى الخارج للعمل، وبسبب سوء الأحوال المادية للأسرة وارتفاع تكاليف المعيشة في الخارج فإنهما لن يستطيعا أخذها معهما، لذلك ستظل ماكثة في منزل جدها وجدتها، كان ذلك الأمر شاقًّا، بالغ الصعوبة في تحمله أو استعيابه من قبل طفلة لم تبلغ السبع سنوات بعد، والتي حاصرتها الأسئلة من كل اتجاه، كيف لهما أن يتركاني؟ لماذا لا أستطيع السفر معهما؟ ألن أرى أبي وأمي مرة أخرى؟ هل أنا عبء عليهما لذلك قرّرا تركي هنا؟

حاولت والدتها التخفيف من وطأة القرار ووعدتها بأنها ستحدثها يوميًّا وعليها أن تكتب لها الرسائل والجوابات وترسلها لها كل يوم وهي سترد من جانبها على جميع رسائل ابنتها الغالية ولن تشعر بغيابهما أبدًا، بدا ذلك الأمر في عين طفلتها ممتعًا وجيدًا، فكفت عن البكاء والنحيب واستعدت لتجهيز حقيبتها مع أمها حتى تنتقل إلى منزل جدها وجدتها.

هناك في منزل العائلة الضخم، كان كل شيء جميلًا، وفّر الجدان لسهر كل ما تحتاجه، لم يرفضا لها طلبًا أبدًا، فكما يقولون في منزل الجد أو الجدة يصبح كل شيء على ما يرام.

حرصت سهر على الكتابة لوالديها كل يوم والكتابة في ذلك السن الصغيرة تعني الرسم مع إضفاء بضع كلمات بسيطة، أما جدها فكان يأخذ بيديها الصغيرتين ويتجه بها يوميًّا نحو صندوق البريد المجاور للمنزل حتى تضع الرسالة، وما كانت ترمي بها داخل الصندوق الأحمر وتعود إلى المنزل،

حتى تجلس في شوق وترقب منتظرة ذلك الرد الذي وعدتها به أمها، دومًا ما كانت تحلق بأحلامها بعيدًا وتتخيل ردة فعل والديها عندما تصل الرسالة إلى أيديهما، هل سيحبّانها؟ هل سيعلقانها في المنزل الذي يسكنان فيه؟ تصورت دائمًا تلك الفرحة عندما تصلهما رسائلها، باتت تلك التخيلات دافعًا قويا لكتابة المزيد والمزيد من الرسائل.

لكن المحزن أن سهر لم تتسلم يومًا ردا على رسائلها وحين كانت تذهب إلى جديها وتسألهما عن السبب، كانا يصبرانها بأنه من المؤكد أن الرد سيصلها يومًا ما وما عليها سوى الانتظار والاستمرار في الكتابة لأبويها، هي أيضًا لم تتلق اتصالًا واحدًا قط، فبرر جدها لها ذلك الأمر قائلًا بأن البلد الذي سافر إليه أهلها لم تكن الاتصالات فيها متاحة للكثير من الناس وأن الاتصال هاتفيا يكلف الكثير من المال، وما كان على طفلة صغيرة السن محدودة المعرفة والإدراك سوى أن تصدق ذلك الحديث وتلك التبريرات.

مرت الأيام وجرت من ورائها الأشهر، والأشهر تلتها السنوات...

وأخيرًا بعد طول انتظار وصل الرد إلى سهر، لم يكن ردا مكتوبًا أو مكالمة تليفونية بل كانت والدتها نفسها هي التي جاءت لتزورها، لم تسع الفرحة دنياها عندما رأتها، ظلت تحتضنها وتقبلها مرات ومرات، لقد عادت أمها بعد فترة طويلة، لكن الأم لم تأتِ وحدها، جلبت معها خيبة الأمل والألم لسهر، حيث سمعت سهر عن طريق الصدفة حديثًا بين الأم والجدة في أثناء ذهابها إلى غرفتها كي تحضر بعض الألعاب حتى تريها لوالدتها، قالت

الجدة بأن سهر تتدمر نفسيا وعليها أن تأخذها هي ووالدها لتعيش معهما أينما كانا، حتى تحظى الطفلة المسكينة بعيشة سوية وحياة هادئة مستقرة، لكن الأم أجابتها بأنه لا ينبغي عليها أن تمنح ابنتها أملًا خاطئًا بل مستحيلًا، ذلك لن يحدث فالأبوان لن يستطيعا الاعتناء بها في ظل عملهما الدائم.

كان ذلك في غاية الأنانية.. في غاية القسوة، وقعت تلك الكلمات على أذن سهر وقع الصاعقة حينما تنزل على أرض فتدمرها، هرعت سهر إلى غرفتها ودموعها تنهمر وألقت بأقلامها وألوانها التي تستخدمها في الرسائل من النافذة، كما جاءت ببعض الرسائل التي قد كتبتها سابقًا لكنها لم ترسلها بعد ومزقتها إلى قطع صغيرة بل إلى فُسَيْفِسَاوات وأثارتها في الهواء.

اتخذت قرارًا وهي طفلة ابنة التسع سنوات، أنها لن تكتب لهما أية رسائل بعد الآن، لم يعد لديها ما تقوله لهما أو ما تطلبه منهما، سكت القلب وجفّت الكلمات على اللسان لم يعد هناك ما يقال أو يكتب، تحجرت الأوراق وشابت الروح قبل آوانها.

كانت تلك الأمور سببًا وراء بحثها عن البديل، ذلك الذي سيعوضها عما شعرت به من آلام، وبالفعل وجدت غايتها في أصدقائها بالمدرسة، ولهذا السبب كانت علاقتها بهم تستحوذ على حيز كبيرٍ من حياتها، ربما حياتها بأكملها.

عاد والديْ سهر وهي في بداية الصف الثالث الإعدادى، لكن بعدما فات الآوان وانكسرت كل الروابط بينهم، بعد أن دب الفتور في قلبها وأصبحت لا تكنّ أي عاطفة تجاههما، نعم تعاملهما بكل احترام لكن دون

عاطفة، في واقع الأمر إن عودتهما لم تحدث فارقًا في حياتها بل كانت علاقتها بأصدقائها وصديقاتها هي التي تشكل فارقًا، كانوا طوق النجاة الذي التقطته في منتصف البحر العاصف حين تخلى عنها أهلها، لقد استبدلت بأسرتها الأساسية أسرة صغيرة من أصدقاء المدرسة.

لم يكن أحد على علم بكل تلك التفاصيل، سليم أيضًا كان يجهل تلك الأمور على الرغم من قوة الصداقة التي تربطه بسهر إلا أنه لم يعرف شيئًا، فقط تعرف على ذلك الجانب المرح من حياتها، لم يدرك بأن سعادتها وضحكاتها المستمرة أمام الجميع ما كانت إلا قناعًا يخفي وراءه حقيقة مؤلمة وأوجاعًا ليس لها مثيل.

أما الآن فالحزن قرر أن يدق بابها مرة أخرى وكأن الفراق لا يعلم عنوانًا سواها، دومًا ما يتركها أحباؤها.. دومًا ما تُنتزع الراحة والطمأنينة عن قلبها بعدما يستأنس بهما.

إن مثل تلك الأحداث لا تمر مرور الكرام، حتى وإن لم يظهر أثر لذلك في حينها، لكنها تترك ندوبًا وجروحًا في النفس، تُضفي السواد شيئًا فشيئًا وتسلب الروح بهجتها ومن ثَم تزرع الحزن والتشويش واليأس حتى يصحو الإنسان ذات يومٍ فيجد نفسه قد تحول إلى مسخ.

استمرت الحياة بالطبع ولم يقطع الاتصال بين سهر وصديقاتها اللائي غادرن المدرسة ولكن تبقى سنة التغير هي الثابت الوحيد في هذه الدنيا، بدأت كل منهن بالانغماس في حياتها وقلت لقاءاتهن حتى صعب الأمر واختفت تمامًا فرص لقائهن.

كان لفقدان تلك الصداقات أثر سيئ في نفس سهر، زاد قلبها حزنًا وبث فيه شيئًا من التعاسة، أما عن حالتها النفسية التي لم تكن متزنة منذ الصغر فزادها اضطرابًا وتشويشًا، حاول سليم بكل جهده خلال تلك الفترة أن يعوضها بصداقته عما فقدته من صداقات وتمنى أنه لو يستطيع أن ينجو بها من تلك الحالة التي كانت لا تبشر بالخير أبدًا، لكنه فشل في ذلك، لم يقدر على إكمال تلك الأجزاء الناقصة فذات يوم قالت له سهر في نبرات يائسة:

- "أتعلم.. رحلت خمس من صديقاتي مع خمس أجزاء من قلبى، تفرق بقيتنا ولم يعد لي أصدقاء سواك، أنت لا تدرك شيئًا.. كانت تلك الصداقات في غاية الأهمية بالنسبة لي.. لن تعودا أبدًا ولن تكملها صداقة أخرى.. أعرف ذلك الأمر جيدًا.. من يرحل لا يعود.. إنني أكره الفراق بكل أشكاله.. ينتزع مني أحبائى.. كم تمنيت الهرب منه.. لكنني كلما هرعت إلى مكان جاءني فيه.. أشعر بصعوبة في تحمله.. أنت لا تدرك شيئًا يا سليم..".

باتت سهر بمشاكلها البسيطة تأخذ حيزًا كبيرًا من تفكيره، كان يقف عاجزًا متألمًا لا يعرف ماذا يفعل، حتى بدأ زملاؤه يلاحظون اهتمامه الزائد بسهر وحياتها، ربما هو الآخر شعر بشيء ما يحدث داخل قلبه، لكنه من الصعب لفتى في أواخر الصف الأول الثانوي البوح بذلك الأمر، قد يدمر ذلك صداقته بسهر، فحاول التغافل عن تلك الضجة التي بدأت تعلو في قلبه، لكنه المسكين لم يكن على علمٍ بأن تلك الضجة لن تنتهي أبدًا.

أما سهر فكانت تائهة في عالمها المحفوف بالفراق والحزن، ربما في لحظة ما أدركت هي الأخرى أن علاقتها بسليم تفوق حدود الصداقة لكنها لم تلتفت لذلك وظلت هائمة في حياتها.

مر عام وظنت سهر بأنها لن تحظى بأي أصدقاء مرة أخرى وبدأت في التأقلم على حياةٍ فيها شيء من الوحدة حتى جاءت من ستقلب حياتها رأسًا على عقب وستثير فيها الفوضى، إنها (منى عبد الله)، فتاة في مثل سنها، انتقلت مع عائلتها إلى المنزل المجاور لمنزل سهر، إنهم الجيران الجدد.

كانت منى عبد الله ذات بشرة بيضاء وعيون عسلية، ملامحها ملائكية بريئة، تمتلك حسًّا اجتماعيًّا عاليًا، أسرتها تبدو جيدة، وهنا شعرت سهر بأن صداقة جديدة قد تحل على حياتها فتضفي النور عليها من جديد وتمحو الآلام السابقة.

بالفعل تعرفت سهر على منى وسرعان ما أصبحتا صديقتين مقربتين، بل عرفتها سهر أيضًا على صديقها الوحيد سليم نور الدين، حاولت سهر أن تكوّن أسرة بسيطة منهما، فتمنت أن تجمع الصداقة ثلاثتهم، لم يحبذ سليم تلك الفكرة لكنه لم يبد اعتراضًا حيث رأى الحيوية تُبَث من جديد في روح سهر، فبعد فترة طويلة بدأت سهر تشعر بالأمان والألفة من جديد.

عادت الابتسامة تعلو وجه سهر مرة أخرى، تلك الابتسامة التي سحرت سليما منذ وقت بعيد، لم يكن سليم مطمئنًا لمنى، راوده إحساس ما ليس جيدًا تجاهها، ولكن سهر كانت سعيدة، في غاية السعادة وكأنها وجدت ضالتها ثانية.

بعد بضعة أشهر انتاب سليما شعور قوي بأن منى عبد الله ليست بالقدر الملائكي الذي تظهره ملامحها، ثمة شيء ما لا يرضيه تجاه تلك الفتاة، بدا ذلك له واضحًا حينما بدأت تستميل سهر ناحيتها شيئًا فشيئًا وتأكد شعوره هذا عندما جاءته منى ذات يوم وقالت له: " ما لك تصادق

تلك البائسة الحمقاء؟!! أنا أكثر منها جمالًا وإشراقًا.. على كل حال أتمنى أن تفيق عيناك من غفوتهما هذه ".

تلك الكلمات جعلت حقيقتها عارية أمامه، فكر سليم أن يلفت نظر سهر لكنه سرعان ما عدل عن فكرته خوفًا من أن تكذبه سهر بدافع حبها لصديقتها وجارتها منى أو أن يخسرها، حيث كانت سهر ترى أن منى هي خير صديقة ورفيقة، لم تكن على دراية أنه على هذه الأرض يوجد نوع من البشر يحظى بنفوس مريضة، يتمنى ما في يديك حتى وإن كان بسيطًا، بل إذا كنت تملك من "اللا شيء" شيئًا يود الحصول على ذلك "اللا شيء" إن تطلب الأمر، ومع شديد الأسف كانت منى عبد الله واحدة من أولئك ذوي النفوس الحاقدة، تشع سوادًا وكراهية وخداعًا، نفوس لها فحيح سام، تُدمر المرء إذا مسته.

أما سهر فكانت على النقيض تمامًا، يتمتع قلبها بطهرٍ وبراءة تصل إلى حد السذاجة، تلك السذاجة التي قد تكسر روح الإنسان وتصيبه بفقدان الثقة والاكتئاب.

كان سليم رفيقًا حقًّا، واحدًا من أولئك الذين يدركون قيمة الصداقة، ذلك النوع الذي تجده بجانبك إن احتجت إليه بل إنك ربما تجده قبل أن تطلب مساعدته، صادقًا وفيا، يملأ الخير قلبه وتغمر الطيبة روحه، صديقًا من طراز نادر، صداقته كنز حقيقي في أيامنا هذه وثروة لا تقدر بمال.

أرادت منى أن ترث ذلك الكنز عن سهر، طمعت في تلك الصداقة النبيلة وسولت لها نفسها أنها قد تحل محل سهر، في واقع الأمر هي لم تحب سهر يومًا، وأخفت ملامحها الملائكية نياتها الشيطانية، صادقت سهر

وانغمست في حياتها بحثًا عن شيء ثمين للحصول عليه ولم يكن في حياة سهر أثمن من صداقتها لسليم.

رسمت منى خطتها وبدأت تخطو بأقدامها على الطريق الذي حددت معالمه سابقا، فاجأت سليما ذات مرة بطلب المساعدة في مادة اللغة الإنجليزية، فهي على علمٍ بمدى براعته فيها، وافق سليم على مساعدتها كما لو كان سيفعل إذا طلب منه أي شخص آخر، وخلال تلك الفترة انتبه سليم لحقدها الشديد على سهر بل وصل الأمر إلى حد الكره.

قرر سليم أن يُحدث سهر بالأمر لكنه فضل أن يكون ذلك في أثناء وجود ثلاثتهم معًا، لتكون مواجهة أمام سهر، وبالفعل ذات يوم كان ثلاثتهم جالسين في منزل سهر، يذاكرون معًا مادة اللغة الإنجليزية في غرفتها البسيطة، وما إن استجمع سليم شجاعته ورتب كلماته ليواجه منى أمام سهر، حتى ناداها أبوها، فاستأذنتهما سهر وغادرت الغرفة تلبية لنداء والدها وما إن انتهت من إنجاز ما طُلب منها وفي أثناء عودتها إلى الغرفة سمعت حديثًا دائرًا بين منى وسليم، في مشهد ذكرها بذلك الحديث الذي جلب لها خيبة الأمل والحزن منذ سنوات عديدة عندما سمعت حديث أمها لجدتها وهي طفلة، كانت منى هي المتحدثة هذه المرة تقول له: "هل أخبرك سرًّا؟ أنا لا أحب سهر، لم أفعل أبدًا، لكن منذ قدومي إلى حياتها وجدتها تمتلك ما لا تستحقه، صداقتك المميزة لها، هي لا تستحق كل ذلك الوفاء والحب، قررت أن أحل مكانها وأن تتحول تلك الصداقة لتصبح لي بدلًا منها، أنت شخص مميز حقًّا يا سليم.. فلماذا لا تصبح تلك الصداقة لي؟ "

لم ينطق سليم بحرف وواصلت منى حديثها ساخرة: "هل فاجأتك

صراحتي؟ أنا دومًا ما أصل إلى أهدافي مهما بلغت صعوبتها أو بهظ ثمنها".

هنا لم تتمالك سهر أعصابها، اقتحمت عليهما الغرفة ودموعها تتساقط زخات من عينيها، لم تنطق هي الأخرى بشيء، فقط أشارت لهما بإصبعها نحو باب الخروج من المنزل، وأدرك سليم أنها قد سمعت بكلمات تلك الخبيثة منى عبد الله، حاول أن يشرح لها لكنها أبت، لا مزيد من الكذب أو الخذلان والخديعة، خرج الاثنان من المنزل بل من حياتها إلى الأبد.

شعرت سهر بأن قلبها ينزف دمًا قبل أن يكون دمعًا، جرحت روحها مرة أخرى، قد تكون منى شخصًا غير جدير بالثقة أو الصداقة لكن ماذا عن سليم! سليم صديق طفولتها!

تحطمت أمامها الثوابت مرة واحدة وأجهشت بالبكاء، إن جروح الروح يصعب التئامها أو شفاؤها خاصة إن تكررت الآلام نفسها وجُدد الجرح ذاته.. هنا ثمة شيء ما يُنتزع ولا يعود أبدًا.

حاول سليم مرارًا وتكرارًا أن يقابل سهر ويحدثها عن حقيقة الأمر، لكنها رفضت، أراد أن يوضح لها الصورة برمتها وأنه كان ينتوي أن يواجه منى أمامها ذلك اليوم المشؤوم، لكن ما من فائدة الآن فالفوضى التي أُحدثت بقلبها وروحها كان ضجيجها أعلى بكثير من محاولات سليم.

شعر سليم بالذنب لأول مرة لأنه لم يحذرها حين انتابه ذلك الشعور السيئ تجاه منى في أول معرفتهما بها، أحس جرحًا في قلبه حينما رأى سهر تمشي تائهة دون ابتسامة، لم تكن تلك هي سهر التي عرفها دومًا، لكنه اتخذ قرارًا بعد كمية هائلة من المحاولات البائسة لتوضيح سوء الفهم،

قرر أن يكف عن المحاولة وأن يبتعد لفترة من الوقت.

انتهى العام الدراسي للصف الثاني الثانوي وجاءت الإجازة وكانا سهر وسليم قد تعودا على أن يقضياها برفقة بعضهما البعض نظرًا لصداقتهما وكذلك لقرب منازلهما من بعضهما البعض، لكن هذه المرة لم يفعلا.

أفقدت كلمات منى السامة ثقة سهر بالآخرين، بل ربما إنها قضت على تلك الثقة التي لم تكن موجودة من الأساس بالقدر الكبير، وذلك المشهد التعس حين رأت منى تتحدث عنها بالسوء أمام سليم لن يترك ذهنها بسهولة، نزع عنها الأمان والاطمئنان مرة أخرى.

لقد حاولت التعافي بصورٍ عدة، مرة تبكي ومرة أخرى تضحك بجنون، أرادت أن تنسى أو تتناسى، رسمت لنفسها مسارًا جديدًا ووضعت هدفًا محددًا نصب عينها، وهو أن تركز على دراستها في عامها الأخير وأن تنهي صفها الثالث الثانوي بأعلى مراتب النجاح حتى تلتحق بكلية الطب وتصبح طبيبة، فتحت سهر صفحة جديدة في حياتها بقوانين سنتها هي بنفسها، حتى تأمن انكسار الروح وتبعثُر القلب، فلم يتبق لها منه سوى أشلاء وعليها أن تحافظ عليها بشتى السبل، ولم يكن ذلك المسار يتضمن سليما على الإطلاق.

مرّت أربعة أشهر، حدث فيها الكثير من التطورات في حياة سليم العائلية، احتد الصدام بين أمه وأبيه، كانا قد اعتادا على الشجار منذ زواجهما، ربما لاختلاف وجهات النظر.. ربما لأنهما من بيئتين مختلفتين وبلدين غير متشابهينِ في العادات والتقاليد والثقافة، لكن الأمر بدأ يزداد وصار يأخذ منحًى مختلفًا الأيام الأخيرة، فكانت دومًا ما تهدد والدته بالرحيل ولكن سليما لم يأخذ كلامها هذا على محمل الجد أبدًا، في تلك الفترة التعسة من حياته صار تائهًا إلى حد كبير، مشتت العقل والفكر، مكبلًا بالهموم والغموم والمشاكل، تمنى وجود سهر بجانبه ربما أكثر من أي وقتٍ مضى، لكنهما لم يعدا على تواصل رغم وجودهما معًا في المدرسة نفسها وفي الصف ذاته بل في الحي الذي يسكنان به أيضًا، لكن ألسنتهما نادرًا ما كانت تتحدث وإن اضطرا إلى توجيه الحديث لبعضهما البعض، فعادة ما يكون ذلك لإلقاء السلام أو التحية، لا أكثر ولا أقل.

تطوق سليم لإنهاء تلك المهزلة، أراد أن يستعيد صديقة عمره، إنه يحتاج لوجودها في ظل الظروف التي تمر بها عائلته، ففكر أن يكتب لها رسالة، يوضح فيها سوء الفهم الذي حدث منذ عامٍ وأكثر وتعاد الأوضاع عن طريقها إلى صوابها.

ظل يكتب لها طيلة ليلة كاملة، لم تغفُ عيناه خلالها ولم يدق بابه النوم ليلتها، سطر الحقيقة بكل تفاصيلها، أخبرها عما ود توضيحه ذلك اليوم المشؤوم حين سمعت منى عبد الله وهي تتحدث عنها بالسوء، حدثها عن غضبه تجاهها حين أبت سماعه وحين تخلت عن صداقته بكل سهولة، وفور الانتهاء من الكتابة قرر بألا يعطيها الجواب يدًا بيد، فهو لا يأمن ردة

فعلها، على كل حال فكر بأن يذهب إلى المكتبة المدرسية وأن يضع الرسالة داخل أحد كتب العلوم التي كانت تقرأ سهر فيها دومًا، وكي تستطيع تمييزه وضع الكتاب في اتجاه معاكس لبقية الكتب الموجودة على الرف نفسه، ثم ذهب إليها وأخبرها بأنه قد ترك لها شيئًا في المكتبة، تحديدًا في الرف رقم تسعة.

ظل سليم متوترًا قلقًا، منتظرًا ردها عما ورد في رسالته، هل ستاسمحه؟ هل ستصدق كلماته وتقبل اعتذاره المكتوب في نهاية الرسالة؟ هل ستعود صداقتهما مرة أخرى؟

كان منتظرا رأيها على أحر من الجمر، وأخيرًا انتهى اليوم الدراسي وذهب ليسألها عما إن كانت حصلت على ذلك الشيء الذي تركه لها أم لا، فاجأته سهر بردها غير المتوقع، لقد نسيت أمره تمامًا ولم تذهب إلى المكتبة وقالت له: "انتهى يومنا وأغلقت المدرسة أبوابها ولسوء الحظ غدًا وبعد غد عطلة أسبوعية، لكن أعدك يوم الأحد سأبحث عن ذلك الشيء".

كظم سليم غيظه وهون على نفسه قائلًا بأن يوم الأحد ليس ببعيد.. سأنتظر.

جاء يوم الأحد.. اليوم المنتظر، ولم تذهب سهر إلى المكتبة قط ولم تقرأ رسالة سليم أبدًا، ربما نسيت أمرها فعلًا أو أنها تناستها عن قصد، لا يهم فالنتيجة واحدة، ذهب سليم إلى المكتبة في ذلك اليوم ليتأكد إن كانت قد وفت بوعدها أم لا، وجد رسالته مكانها لم يمسسها أحد، استشاط غضبًا وغادر المدرسة في حالة من الثورة والغليان، لكنه لم يكن على دراية بما ينتظره من فوضى حقيقية في المنزل.

عاد سليم إلى منزله وما إن فتح الباب حتى وجد أباه يجلس مفترشًا الأرض في حالة من الحزن والآسف، رأى الدموع تلمع في عينه لأول مرة وسرعان ما أخبره الأب بالكارثة، نفذت والدته تهديدها الذي طالما لوحت به وتركت المنزل، لا يعرف إلى أين ذهبت ولا مع من غادرت، رحلت فجأة وتركتهما من المخلفات وراءها.

أجهش سليم بالبكاء، صار يكذب والده، فكيف لأمه أن تتركه! هرع باحثًا عنها في المطبخ، الغرف، دورة المياه، الحديقة والجراج، سأل عنها الجيران والأقارب، ذهب إلى مقر عملها فلم يجدها، اتجه للمعارف والأصدقاء، لم يتبق لها أثر ولم تترك كلمة واحدة تهدئ بها تلك النيران التي أُشعلت برحيلها، وكأن الأرض قد انشقت فجأة وابتلعتها مع أشيائها.

سار هائمًا في الشوارع، عيناه كالجمرتين من شدة البكاء كُسر قلبه وبُعثرت روحه، اتسخت ملابسه وباتت غير مهندمة جراء عملية البحث عن والدته طيلة يوم كامل، عاد إلى المدرسة في حالة يُرثى لها وظل يبحث عن سهر حتى يخبرها بما وقع، وجدها تلهو مع بعض من زميلاتها، طلب منها أن تذهب معه حتى يُحدثها بشأن أمر ضروري، لكنها تجاهلته ومع إلحاحه الشديد، صرخت في وجهه قائلة: "ماذا تريد مني؟ ما الذي تود قوله؟ ما هو الشيء المهم لهذه الدرجة؟ "

كان يبكي في انكسار موجع وهو يقول لها: "أمي.. لقد تركتنا أمي ورحلت دون أن تترك أثرًا أو عنوانًا.. لم تقل كلمَة واحدة ولم تكتب حرفًا.. لا نعرف إلى أين ذهبت.. قال لي أبي.. إنها لن تعود.. رحلت أمي.."

ردت سهر على تلك الكلمات المؤثرة في سخرية حادة وكأنها تنتقم لما أصابها من ألم سابق ورغم أنها أكثر شخص يدرك الفراق وجرحه. أظهرت لا مبالاة بما يقوله سليم بل قالت له: "وماذا تريديني أن أفعل؟ هل أذهب أنا وأعيدها إليك؟ " ليضحك حينها الجمع من حوله.

في تلك اللحظة توقف الزمن بسليم، تركته والدته وأهينت كرامته، تمنى لو بإمكانه أن يختفي تمامًا، وهنا قرر بألا يتحدث إلى سهر مرة أخرى، حطم فؤاده وخرج راكضًا من المدرسة نحو منزله، كان لا يريد شيئًا على الإطلاق في تلك اللحظات المؤلمة سوى حضن أبيه الذي بات المكان الأكثر صدقًا وأمانًا الآن.

في حقيقة الأمر منذ رحيل والدة سليم إلى المجهول، قام الأستاذ " يس نور الدين" والذي كان يعمل بالمحاماة بكلا الدورين، دور الأب والأم، بات يعمل في النهار ليكسب المال ثم يعود إلى المنزل ليطهو الطعام ويجهزه سريعًا قبل عودة سليم، كذلك إن مرض سليم كان هو الذي يسهر على راحته طوال الليل، لم يدخر جهدًا أو حبا عن ابنه، وتمنى أن يسير الابن على خطى أبيه وأن يدرس القانون في باريس ويسلك طريق المحاماة حتى يصبح محاميًا مشهورًا.

ورغم أمنياته هذه إلا أنه لم يحاول التأثير على أي من قرارت ابنه بل ترك له حرية الاختيار والمساحة لتحديد هوية مستقبله.

كان سليم على علمٍ بما يطمح فيه والده منذ أن كان طفلًا، لكنه لم يكن يأخذ تلك الأمنية على محمل الجد حتى اللحظة التي رأى فيها الدموع في عين والده حين رحلت عنهما والدته، وصار يأخذها أكثر جدية حينما

أهانت سهر كرامته أمام زملائهما من المدرسة.

وذات يومٍ في أثناء دور شطرنج بينه وبين أبيه، أخبره بقراره، إنه ينتوي السفر إلى باريس لتحقيق رغبته ولدراسة القانون، حان الوقت للابن أن يرد جزءًا من جميل الأب، حان الوقت ليجعل أمنيته التي طالما حلم بها وتمناها منذ ولادة صغيره أن تصير حقيقة ملموسة.

جاء يوم الفراق.. فراق الابن عن أبيه وفراق سهر عن سليم، كان سليم قد كف عن محادثة سهر أو إلقاء التحية عليها نهائيا منذ شهرين، كان فراقًا مبسطًا أما الآن فالوضع يختلف سيكون ذلك الفراق الذي تفصلهما فيه المسافات والأميال والبلدان.

أتم الأستاذ (يس نور الدين) تحضير حقائب سفر سليم ورتبها جيدًا داخل السيارة ليأخذه إلى المطار في حين كان سليم داخل المنزل يودع أركانه وكل شيء فيه للمرة الأخيرة، جاءت سهر تركض من منزلها المجاور لهما بأقصى سرعة تمتلكها، أرادت أن تلقي على رفيق طفولتها السلام الأخير لكنه أبى أن يُحدثها وذهب مسرعًا نحو سيارة أبيه، ظلت سهر تنادي عليه: "سليم.. سليم انتظر، لا ترحل "، والسيارة تنطلق، لكنه لم يسمع ولم يلتفت للوراء ورحل سريعًا.

❊ ❊ ❊

أشرقت شمس يوم آخر، وأنا ما زلت هنا عالقة بين الحياة والموت، لم يُبحث عني ولم يُلتفت لغيابي، لكن لماذا الدهشة الآن؟ لقد ألفت دومًا ذلك الركن المهجور والبارد في قلوب الجميع، كنت دائمًا أنا التي تبادر وبالود والصداقة والإحسان ولكن ماذا كان جزائي؟ الكذب والغدر والخديعة والخذلان.. انكسار القلب وانطفاء الروح، تشويه النفس وتشتيت العقل، لقد تطلب الأمر مجهودًا نفسيا وذهنيا ضخمًا حتى أواسي الجميع وأخفف آلامهم وأهدئ من روعهم وأقف بجانبهم قبل أن يحتاجني أي منهم، لكن اتضح أنني كنت على خطأ، قد التهم شبح الرحيل الجميع من حولي، أي كان ما عليّ الآن سوى التركيز للخروج من ذلك المأزق اللعين.

أحاول أن أرتفع بجسدي إلى الأعلى مرة أخرى بواسطة ذلك الحبل الوحيد لدي، ألمس بشائر الأمل، صعدت عدة سنتِيمترات، أعتقد أنه إنجاز عظيم يستحق مكافأة جسدي المنهك بقليل من قطرات المياه حتى نبث فيه الحيوية، ها أنا الآن أستعيد جزءًا من قوتي وحتى أدخر تلك القوة سأروي بقية القصة لجذب انتباه أعضاء ذلك الجسد البشري حيث إنها تُعاند وتحاول الاسترخاء خلسة.

سافر سليم إلى فرنسا وتاهت سهر بين طيات حياتها المزدحمة، انشغل كل منهما بمستقبله وحياته الجديدة ولكن دومًا ما تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن بل بما يُقدر للمرء مقابلته.

انقضى عام تلو الآخر حتى مرت ١٠ سنوات كاملة أو أكثر بقليل، برع خلالهما كل منهما في مجاله الذي اختاره لنفسه، أصبح سليم محاميًا مشهورًا في فرنسا، أما سهر فقد صارت طبيبة عظام بارعة حتى إنها عُينت لتصبح طبيبة المنتخب الوطني لكرة السلة.

لن تستمر الحياة على تلك الوتيرة الهادئة فما زال القدر ينطوي على الكثير في جعبته لسهر مصطفى أحمد وسليم نور الدين.

مرت عشر سنوات، لم يحاول سليم الاتصال بسهر ولو لمرة واحدة، لم يلق نظرة نحو الماضي ولم يعد أبدًا، درس القانون خلال تلك الفترة وأصبح محاميًا ماهرًا وعمل بالمحاماة ثم أسس شركته الخاصة للاستشارات والتعاملات القانونية وحل القضايا والنزاعات في باريس.

أما سهر فقد صارت طبيبة ماهرة، أنهت دراستها في مجال الطب وتخصصت في العظام، اشتهرت ببراعتها في مداواة العظام وعلاجها، أصبحت الطبيبة الخاصة لفريق كرة السلة الوطني الأول، أسعفت العديد من اللاعبين وسط ميادين المباراة وأسهمت في تحقيقهم للعديد من البطولات.

ذات يوم أُعلن عن بطولة دولية لكرة السلة، وبدأ المنتخب الوطني بجهازيه الفني والطبي بالإعداد والتجهيز لتلك البطولة والتي وقع الخيار أن تُعقد في عاصمة النور ومدينة الحب باريس.

كانت سهر قد اعتادت السفر مع الفريق لإقامة المباريات سواء إن كانت الدولية أو الودية وقد تحدد موعد السفر ليكون في الثامن من نوفمبر، ذلك يعني أنه لم يتبق سوى أربعة أيام للسفر إلى باريس، بدأت سهر بالفعل تجهيز أغراضها استعدادًا للسفر وفي أثناء تلك التجهيزات راودها هاجس أنها قد تلتقي بسليم والذي يسكن باريس ولكن سريعًا ما حاولت طرد ذلك الشعور السخيف، إن هذا البلد ممتلئ بالملايين من البشر، لن تجمعهما الصدفة ولن يختارهما القدر من وسط تلك الحشود الهائلة حتى يلتقيا، استنكر عقلها الفكرة ولكن قلبها كان على يقين بأن شيئا ما سيحدث خلال تلك الرحلة.

حلقت سهر والفريق الوطني إلى فرنسا ووصلت إلى باريس مدينة الجمال حيث سحر الغروب وأصوات الكمان التي تحيط بالشوارع المبللة برذاذ الأمطار التي تمتزج برائحتي الحرية والأمل.

وصل الفريق إلى الفندق ووضعوا أمتعتهم وذهب كل منهم إلى غرفته كي يستريح من عناء السفر.

وفي اليوم التالي غادر الفريق إلى المران وسنحت الفرصة لسهر حتى تأخذ جولة في الشوارع حول الفندق، جلست بأحد المقاهي وتذوقت القهوة الفرنسية ذات المذاق الساحر، ثم فكرت بأن تذهب لأشهر معالم باريس برج إيفيل، ودت رؤيته عن قرب ولكنها حين همت بالاتجاه نحو محطة المترو المتجه إلى تلك المنطقة، رن هاتفها الخلوى، كان اتصالًا من المدير الفني للفريق، طلب منها المجيء سريعًا إلى الاستاد حيث يقام المران، فيبدو أن أحدهم أصيب إصابة بالغة في أثناء المران مما يتطلب وجودها على الفور لمعالجته.

عادت سهر مسرعة إلى الفندق وأتت بحقيبة الإسعافات ثم سارت نحو الاستاد وفي أثناء سيرها حدث ما لم يكن في الحسبان، تعرضت لحادث سير ونقلت إلى المستشفى، تبين هناك إصابتها بجزع متوسط الدرجة في اليد اليسرى وسرعان ما اتصلت بأحد زملائها في الطاقم الطبي وأبلغته بالحادث، ولم تكد تنهي المكالمة حتى وجدت الفريق بأكمله حولها في المستشفى، تركوا المران وجاءوا جميعًا ليطمئنوا عليها، أما المستشفى فقد أصرت على إبلاغ الشرطة بالحادث لاتخاذ الإجراءات المطلوبة والتي تختص بتعويض الضحية في حالة ثبوت عدم تجاوزها لأي من القواعد المرورية وأنها لم تخرج عن الإرشادات والتعليمات، لكن في تلك الحالة عليهم توكيل محامٍ حتى يباشر الإجراءات مع قسم الشرطة، حاولت سهر أن تقول لهم إنها لا تريد أية تعويضات وأن الأمر لا يستدعي كل تلك الإجراءات كما أنها بخير وفي حالة جيدة، لكن أبت المستشفى كما أبى أيضًا مدرب الفريق وأصر على توكيل محام وقال بإنه صديق لمحام كان يعمل قديمًا في باريس، في الحقيقة ذلك المحامي لم يعد يعمل الآن وأحيل للتقاعد ولكنه سيحدثه حتى يرشح له واحدًا أو ربما يكون على معرفة بإحدى الشركات القانونية التي تختص بالتعامل مع تلك الأمور للتواصل معهم.

اتصل المدير الفني بصديقه الأستاذ يس نور الدين، شرح له الموقف فأخبره الأستاذ بأنه سيرشح له واحدًا ربما يكون أحد أمهر المحامين في فرنسا بأكملها واسمه "سليم يس نور الدين"، كانت مفاجأة للمدرب فهو لم ير سليما منذ أن كان طفلًا وفرح كثيرًا بأن الولد صار على خطى أبيه وأصبح محاميًا ماهرًا، شكر صديقه وأغلق الهاتف، ثم عاد إلى غرفة سهر

بالمستشفى وأخبرها أنه قد توصل لأحد المحامين وسيتواصل معه بشأن الواقعة والإجراءات، أما هي فلا عليها سوى أن تعود إلى الفندق وتحصل على قسطٍ من الراحة، وبالفعل غادروا جميعًا المستشفى وعادوا إلى الفندق في حين ذهب المدرب إلى مكتب سليم، لقد اتصل بالمكتب واستطاع حجز موعد كي يشرح له تفاصيل الحادث.

وصل إلى المكتب وانتظر لعدة دقائق في غرفة الاستقبال، كان مكتبًا فخمًا زُين بلمسات من الأناقة والجمال، جاءت السكرتيرة ونادت باسمه وقامت بتوصيله إلى مكتب الأستاذ سليم نور الدين، حين دخل من الباب وجد في انتظاره شابا طويل القامة مرفوع الهامة، تعلوه الثقة بالنفس، ألقى المدير الفني التحية عليه ثم جلس وبدأ بالحديث وما إن عرف سليم بأن الجالس أمامه صديق قديم لوالده حتى أسرع وأعاد استقباله بالأحضان في حفاوة ودفء وكأنه يستقبل والده في شخصه، وقرر ألا يتقاضى أية أتعاب أو مصاريف فقط طلب منه أن تقوم من تعرضت للحادث بعمل التوكيل وهو من سيقوم بباقي الإجراءات، شكره مدرب الفريق واستأذن في الرحيل.

عاد الرجل إلى الفندق وأخبر سهر بالمطلوب فقامت بعمل التوكيل، أما سليم على الجانب الآخر فقد باشر الإجراءات ولم يكن يعلم أي منهما عن وجود الثاني، لم يعلم المحامي بأن الضحية هي سهر مصطفى أحمد ولم تعلم هي بأن المحامي الموكل للمطالبة بالتعويض ومن يباشر الإجراءات المتعلقة بحادث السير الذي وقع معها هو سليم نور الدين.. صديق طفولتها وحبها الأول.

ذهب سليم إلى الفندق كي يقابل موكلته، كان يريد منها التوقيع على بعض الأوراق المطلوبة لإنهاء الإجراءات الروتينية، وصل بالفعل إلى الفندق واتجه مباشرة نحو مكتب الاستعلامات وتحدث إليهم بالفرنسية المطلقة طالبًا منهم إبلاغ موكلته بوجوده.

الجدير بالذكر أن سليما قد أصبح فرنسيا خالصًا، إن رأيته في أحد شوارع باريس لن تشك لحظة أنه من أي بلدٍ غير فرنسا سواء المظهر أو اللهجة التي يتحدث بها، فكلاهما فرنسيان خالصان، قد يرجع ذلك إلى الدم الفرنسي الذي يجري في عروقه من أمه ذات الأصول الفرنسية.

أخبرت موظفة الاستعلامات سهر بأن هناك محاميًا في انتظارها بالأسفل، استعدت سريعًا وغادرت غرفتها في بضع دقائق ولم يخطر على بالها ولو للحظة أن القدر قد رتب لها موعدًا مفاجئًا مع سليم نور الدين وأن الصدفة قد استجمعت كل قوتها حتى تقلب حياتها رأسًا على عقب مرة أخرى.

عندما وصلت سهر إلى (اللوبي) أشارت لها إحدى العاملات في الفندق نحو ذلك الرجل الذي يرتدي بنطالًا كُحلي اللون وقميصا لبنيا تلك الدرجة الفاترة من زرقة السحب التي نراها أحيانًا في فصل الشتاء كما ارتدى فوقه بلوفر رمادي اللون، كان ذلك المحامي يحتسي القهوة منتظرًا موكلته، لم تر وجه الرجل من على بُعد، شكرت العاملة واتجهت بخطى ثابتة نحو الطاولة المطلوبة، أخذت سهر تتفحص الرجل في أثناء سيرها على حين تقترب من المكان الذي يجلس فيه، يبدو محاميًا شابا، شعره ناعم أشقر اللون، مصفف بعناية فائقة مثل نجوم هوليوود، لم تر العينين لأنه كان

يلقي نظرة على بعض الأوراق، وأخيرًا وصلت إلى الطاولة وبصوتها المميز الرقيق ألقت عليه التحية بالفرنسية: " بونجور".

وقف المحامي من مجلسه ليصافح موكلته وما إن نظر كل منهما في عين الآخر حتى كانت المفاجأة الصادمة!

عاد الاثنان في أسرع من لمح البصر عشر سنوات وأكثر للوراء، سكتت الأصوات من حولهما وتوقف كل شيء عن الحركة وكأن الكون برمته قد سكن مكانه للحظات، فتجمدت الأشياء في موقعها وتحجرت الأناس على صورتها، إن مثل هذه الصدف لا تصدق ولا تحدث إلا في الأفلام والأساطير أما في واقعنا فمن الصعب حدوث هذه الأمور ولكنه القدر!

لم يستطع أي منهما التحدث من هول المفاجأة، لكن سريعًا ما رُسمت ابتسامة متلألئة على وجه سليم قائلًا: هذا لا يصدق.. سهر! أنتِ هنا! في باريس.. أنتِ هنا! أنتِ موكلتي التي جئتُ لأحصل على توقيعها حتى أستكمل الإجراءات! لا أصدق.. مرة أخرى بعد عشر سنوات وأكثر!

ابتسمت سهر وقد لمعت عيناها هي الأخرى وبدأت تتحول تلك الابتسامة إلى ضحكات، تلك الضحكات الجذابة ذاتها التي لم تتغير منذ أن كانت طفلة وكأن وقتًا لم يمر، وردت قائلة بصوت منخفض:

- لا..لا..لا ليس مرة أخرى بعد طيلة هذه السنوات.

كانت همهمة بصوت منخفض لم يسمعها سليم، فسرعان ما علت بصوتها وقالت:

-يا لها من صدفة! إنها واحدة مما نقرأ عنها في الأساطير والقصص الخيالية!

قاطعها سليم سريعًا: لا تقولي إنكِ ما زلت تقرأين قصص جنيات العرابة (Fairy God mothers)، الجنيات الطيبات اللائي يظهرن لبطلة القصة في وقت ما من أوقات حياتها فيقمن بإصلاح كل شيء بلمسة واحدة من العصى السحرية!

سهر: أا..نعم ولكن ليس كثيرًا، لم أعد أمتلك الوقت الكافي لقراءتها، كما أننا على أرض الواقع حيث لا وجود للعرابات أو الأمنيات التي يسهل تحقيقها كذلك الأمور هنا في عالمنا لا تنصلح أبدًا وإن حدث فلا يكون إلا بعد فوات الأوان.

سليم: أرى أمامي امرأة واقعية إلى حد كبير ويبدو أنها على دراية بكثير من الأمور، لكن أخبريني أين ذهبت تلك الفتاة الخيالية التي كانت وكأنها ضلت طريقها من عالم الأساطير والحكايات إلى دنيانا؟

سهر: ربما عادت إلى عالمها وربما دُهست في عالمنا بين الصخب والظلم أو أنها قد تلاشت بين طيات الدمار الذي يحيط بنا من كل جانب.

سليم: وربما ما زالت موجودة.. ربما فقط تائهة.. ربما تبحث عن شيء ما أو شخص ما.. كذلك ربما أنها تكون قد عادت وأنتِ لا تدرين!

سهر: الغائب لا يعود.. دعك من هذا كله، أين تلك الأوراق التي قد سبق وطلبت موكلتك من أجلها؟

سليم: ها هي.. وقعي أسفل تلك الأوراق من فضلك.

وقّعت سهر على الأوراق المطلوبة واستأذنت في المغادرة، تركت الطاولة ولم تلتفت إلى الوراء في حين ظل سليم هائمًا وسط فرحة اختلطت بالحيرة، إنه في أعلى قمم السعادة الآن بعد لقائه بصديقة عمره وحبه

الأول والأوحد، أما حيرته فيرجع سببها إلى ذلك السؤال الذي سيطر على روحه وهو هل سيستطيع مقابلتها مرة أخرى؟ ثم بدأت الأسئلة تتوالى على رأسه هل سيتحمل وجودها مرة أخرى في حياته والأهم من ذلك أنه قد مرت عشر سنوات لا يعرف ما الذي حل بها فيها، تُرى هل فتنها شخص آخر خلال تلك الفترة الزمنية؟ هل ما زالت هي تتذكر صديق طفولتها بل حب طفولتها؟ هل ما زالت تؤمن بتوأمة الأرواح مثلما كانت تقول في صغرها؟ هل لهذا اللقاء سبب؟ هل هذا هو القدر؟ لماذا إذًا جمعتهما الصدفة بعد كل تلك الأعوام؟

لم يحظ سليم بأي إجابات تلك الليلة ولكنه كان سعيدًا حقًّا، أكثر مما يتخيل هو نفسه، أمضى الجزء المتبقي من ليلته هذه يتجول بين أزقة باريس وشوارعها الخلابة، مسترجعًا شريطًا زُين بأدق تفاصيل طفولته ومدرسته وبالطبع سهر وكأن ينبوعًا من الذكريات قد تفجر فجأة ولا يستطيع إغلاقه أو الحد منه أبدًا.

أما سهر فكانت على النقيض تمامًا، على ضفة أخرى من الحكاية، لم تمر ليلتها مرور الكرام ولكن ليس بسبب السعادة أو الذكريات مثلما حدث مع سليم بل كانت تجاهد خوفها وقلقها، حاولت منع ولادة أية تساؤلات، كانت لا تريد أن يُفسد ماضيها حاضرها، وحينما عادت إلى غرفتها جلست تتصفح بعض المواقع الإخبارية على شبكة الإنترنت وأعدت لنفسها فنجانًا من القهوة، احتسته في هدوء ثم أغلقت الأنوار وخلدت إلى النوم.

وبعد ساعات قليلة دق الأرق بابها، أيقظها من نومها ولكنها لم تستسلم له بسهولة وحاولت استعادة النوم مرارًا وتكرارًا حتى فشلت في

نهاية الأمر وأشعلت الإضاءة الخافتة المجاورة لها، تلألأت بعض الأسئلة في سماء فكرها في أثناء تلك اللحظات، هل كان الحادث الذي تعرضت له قدرا؟ لماذا من المقدر لها أن تلتقي بسليم مرة أخرى؟ ولماذا اختارته الصدفة دون كل محامين فرنسا كي يكون هو محاميها؟ كان من الممكن أن تكون من تعرضت للحادث أي امرأة أخرى وكان من الممكن أن يكون المحامي أي من رجال المدينة! لماذا تتلاقى طرقهما دائمًا؟

على كل حال لم تترك سهر نفسها أسيرة لتلك التساؤلات فترة طويلة، وفتحت ذلك الدرج الصغير بجانبها وأخذت قصصها المفضلة قصص جنيات العرابة، قرأت بعض القصص حتى غفت عيناها في أثناء القراءة وخلدت مرة أخرى للنوم.

لقد مرت تلك الليلة الطويلة بكل ما فيها من أفكار وتساؤلات.. مرت بكل ما حملته من صدف ومفاجآت لكل منهما.. وجاء صباح اليوم التالي، كل في طريقه كلٌّ منهمك في حياته، ذهبت سهر مع الطاقم الطبي والفريق إلى المران ووصل سليم إلى مكتبه في الموعد كالمعتاد، مشهد طبيعي يوحي بأن الأمور تسير على ما يرام في الاتجاهين، ولكن الحقيقة كانت على عكس ذلك تمامًا.

أنهى الفريق مرانه في الوقت المحدد وعادوا جميعهم إلى الفندق، وعندما بدأت سهر تخطو خطواتها الأولى بعد المرور من بوابة الفندق وجدت سليما جالسًا ينتظرها ناحية مكتب الاستقبال.

جاء سليم ليخبرها بأنه قد أنهى الإجراءات المطلوبة والمتعلقة بذلك الحادث وأصبحت الأمور على ما يرام، شكرته سهر كما فعل مدرب الفريق

على ما قام به من عمل وأوصاه بأن يبلغ سلامه لوالده عندما يراه ثم استأذنهما ورحل، كذلك سهر كانت على وشك الاستئذان والرحيل هي الأخرى إلى أن سألها سليم مباغتًا إياها قبل مغادرتها: وماذا الآن؟!

سهر: ماذا تقصد بماذا الآن؟

سليم: هذه هي المرة الأولى لكِ في هذا البلد باريس، ألا تريدين رؤيتها عن قرب كأحد ساكنيها وليس فقط كسائحة؟

أصاب الصمت سهر للحظات محدودة في حين كان هناك صوتٌ بداخلها يقول: " لا..ليس مرة أخرى..لا"، إلا أن لسانها كان قد سبق عقلها سريعًا فقالت:

- وهل هناك فرق؟ أعتقد أن التجوال كسائح في بلدٍ غريب وجديد يطلعك على كل ما هو جميل وباهر، على الأقل يخفي عنك القبح والحقيقة المفزعة لهذا البلد ومواطنيه.. لست أقصد بكلامي هذا باريس بالتحديد ولكن بشكل عام ينطبق هذا على أي بلد في أي بقعة من بقاع العالم.

سليم: ولِمَ كل تلك الفلسفة؟ جربي وستفهمين ما أقصده، سأمر عليكِ غدًا في الثامنة صباحًا، ولتكوني على استعاد فاعتقادك أو رأيك هذا سيُهزم بكل تأكيد.

سهر: هل تتحداني؟

سليم: أي نعم.. وسأنتصر كما فعلت دومًا.

رحل سليم سريعًا بعد هذه الكلمات ولم يترك الفرصة لسهر حتى ترفض هذه النزهة الإجبارية من وجهة نظرها، لم تحظ بوقت للتفكير أو ربما تمنت ذلك في داخلها حتى لا ترفض.

ها أنا هنا مرة أخرى أصارع السقوط، أواجه الموت وأحاول التشبث بالحياة لآخر لحظة، لا أعلم إلى متى سأظل متماسكة إلى هذا الحد، أخشى أنه قد اقترب الوقت الذي سيفلت فيه الحبل من بين يدي أو أن ينقطع هو قبل أن تتركه يداي.

بين السماء والأرض ما زلت أحاول النجاة، لم أعد أنتظر أحدهم ليأتي وينقذني، أعلم جيدًا أنه لن ينقذني مما أنا فيه سوى العناية الإلهية ومن بعدها إرادتي وجلدي، فالذين اعتبرتهم رفقاء للرحلة ما كانوا إلا رفقاء للحظة فقط، في تلك اللحظات الصعبة كل ما أملكه هو أنا، هذه هي الحقيقة، أنا الأنيس والونيس، الصديق والرفيق في ذلك المشوار الطويل والذي لا أعلم كيف سينتهي هل بنجاتي أم بدماري؟

يا ألله! نجحت بعض محاولاتي، ارتفعت إلى أعلى بضعة سنتيميترات.. يبدو هذا جيدا للغاية ومع هذا سأكتفي بذلك القدر من المحاولات لتلك الليلة فالظلام قد أوشك أن يحل.

أما الآن فسأكمل لكم بقية الأحداث حتى لا يصيبني الهوس أو يمسني الجنون..

في تمام الساعة الثامنة من اليوم التالي لإنهاء الإجراءات، كان سليم قد وصل الفندق منتظرًا سهر حتى يريها باريس كما لم ترها من قبل، في الحقيقة لم تنم سهر طيلة الليلة السابقة لذلك اليوم، فكرت باختلاق أي من الأعذار أو الحجج حتى تهرب من تلك الجولة مع سليم، لكنها خشيت أن يكشف سليم أمرها، فكرت أيضًا بأن تذهب معه لقليل من الوقت على أن تعود سريعًا إلى الفندق وبهذا الحل تكون قد خرجت من المأزق بطريقة لا بأس بها ولكن سرعان ما وجدت قلبها يتمسك بتلك النزهة في شوارع باريس وكأنه قلب طفل بريء يود الذهاب إلى ملهى الأطفال الممتلئ بالألعاب التي لم ير مثلها من قبل!

تحدثت سهر إلى نفسها قائلة: "لا.. ليس مرة أخرى، أتوسل إليكِ.. أرجوكِ، لا أريد أن أتذوق مرارة الألم مرة أخرى، تطلب الأمر مني قدرًا كبيرًا من الجهد والعناء استمر لسنوات عديدة حتى أتأقلم على رحيل سليم ورحيل الجميع من قبله، لا أود استحضار تفاصيل الماضى، لم يكن هناك لي أحد..كنت أنا فقط..كنت لنفسي كل شيء وكذلك دومًا سأكون، لن أتحمل دخول أي شخص على حياتي مرة أخرى ليتركني ويرحل دون سابق إنذار كالعادة وأبقى أنا عالقة بين حيرَة وأسئلة لا إجابات لها! لا.. لا ليس مرة أخرى لطالما أنني عانيت من الاكتئاب والألم وحدي كل تلك السنوات، لقد فاض بي الكيل من بني البشر".

لا يستحق أحدنا أن يشعر وكأنه غير كاف! أو أن تمر ليلته وهو يسأل نفسه: "هل أنا بهذا السوء حتى يتركني الجميع؟ "، لا أحد يستحق أن يصرخ ويظل يصرخ ولا يسمعه الناس أبدًا! لا نستحق أن نعاني وحدنا أو أن نشعر بالنبذ والدونية!

" لا.. لا ليس مرة أخرى.. أرجوكِ أنتِ تعلمين جيدًا أنه لا يوجد على هذه الأرض سوى المعاناة ولا يأتي من وراء البشر إلا كل شر وألم ".

مرت أكثر من نصف ساعة وسليم ينتظرها أسفل الفندق ولكن لم تظهر سهر، ذهب سليم إلى الموظفة الجالسة في مكتب الاستعلامات وطلب منها أن تتصل بغرفة سهر وتخبرها بأنه في انتظارها، اتصلت الموظفة بسهر كما طُلب منها ولكن بلا جدوى لم تجب سهر على ذلك الاتصال.

استأذن سليم الموظفة أن تعاود المحاولة مرة أخرى، ففعلت ولكن النتيجة كانت هي نفسها مثلما حدث بالمكالمة الأولى، فكر أن يصعد إلى غرفة سهر بنفسه لكنه رأى جرأة في ذلك التصرف، فهما لم يعودا صديقين مقربين كعهدهما في السابق كما أنهما لم يعودا أطفالا أو مراهقين، أصبحا الآن ناضجين بالقدر الذي تحسب فيه الأقوال والأفعال عليهما، كذلك لا يمتلك سليم تلك المساحة التي توجد بين الأصدقاء حتى تسمح له بأي تصرف أهوج، ظل سليم يفكر لبعض الوقت ثم رأى أن الحل المناسب هو أن يقوم بإرسال أحد موظفي الفندق لها ليخبرها بأنه هناك ينتظرها حسب الموعد المتفق عليه، ذهب أحد موظفي تنظيف الغرف لها بالفعل وأخبرها بما قاله سليم، وبعد عشرة دقائق عاد العامل حاملًا ورقة صغيرة سلمها لسليم ورحل.

تعجب سليم لكنه لم يسأله عما إن كانت سهر قالت شيئًا أم لا وأخذ الورقة وجلس يقرؤها بتأن وهذا ما وجده فيها

" عزيزي سليم..

لا أستطيع أن أذهب معك إلى أي مكان ولا تسألني عن السبب كما لا أريد أن ينبش أحدنا الماضي أو ذكرياته.. أرجوك لا تأت إلى هنا مرة أخرى ولا تحاول الاتصال بى، أُقدر ما بذلته من مجهود فيما يتعلق بشأن الحادث فدعني أقولها لك ثانية.. شكرًا.

مع خالص تمنياتي لك بالتوفيق..

سهر"

كان لوقع تلك الكلمات البسيطة أثر طيب في نفس سليم على عكس المتوقع في تلك الحالة، يرجع سبب ذلك لأنه وجد في كلماتها هذه إجابة على العديد من أسئلته، فمغزى الكلمات يدل على أن سهر ما زالت تتذكر الماضي جيدًا، لم تنس صديق طفولتها بل ربما ما زالت تدرك أن ثمة شيئا ما بينهما ما زال باقيًا على قيد الحياة، هو لا يعلم كيف صارت الأمور معها خلال العشر سنوات الماضية لكن كلماتها كانت كافية له حتى يدرك أنه لم يطرأ شخص آخر أو صديق مقرب على حياتها مثلما كان هو لها، فأضفى ذلك السرور على نفسه.

أما سهر فقد رأت أن تلك الكلمات التي دونتها بيدها ستخلصها من ماضيها وستحررها من حاضرها، لم تعلم أبدًا أنها قد جلبت المفتاح الذي سيعيد فتح أبواب الماضي على مصراعيه بكل ما فيها من تفاصيل وأوجاع بنفسها وأعطته لسليم!

مر يومان بعد واقعة الفندق هذه لم يظهر خلالهما سليم وظنت سهر أنها قد نجحت فيما تريده وتخلصت من سليم الذي رتب لها القدر موعدًا معه لتلتقي به مرة أخرى وشعرت بالراحة التي أعيدُت إلى روحها خلال هذين اليومين بعد ما أصابها القلق والاضطراب، باشرت عملها مع الجهاز الطبي للفريق وصارت تتجول في شوارع باريس المحيطة للفندق وكأن شيئًا لم يحدث وكأنها لم تلتق بسليم قط، اشترت بعض الهدايا لها ولأمها، بات الآن كل شيء في عينيها على ما يرام ولكن هل يستطيع المرء الهرب من قدره؟

في نهاية اليوم الثاني وفي أثناء سيرها ليلًا في أحد الأزقة الضيقة للعاصمة الفرنسية، تعرضت سهر لسطو من قِبل أحد اللصوص، سرق حقيبتها والتي كانت تحتوي على كل أوراقها الشخصية إلى جانب جواز السفر الخاص بها، ظلت تركض من شارع لآخر حتى وصلت إلى الفندق وسرعان ما اتصلت بالسفارة المصرية وأبلغتهم عن الأزمة لإيجاد حل واستخراج جواز سفر جديد أو على الأقل إعطائها ما يؤمن وجودها ويسهل حريتها في التنقل.

تلقت السفارة المصرية مشكلتها بكل جدية وتعاملت مع الأمر بحرفية كبيرة وطمأنها العاملون في السفارة بأنه لا داعي للفزع وأنهم سيعملون على إحضار جواز سفر جديد لها في أسرع وقت ممكن ولكن سيتوجب عليها أن تأتي إلى مقر السفارة في الصباح الباكر لإتمام بعض الأوراق الروتينية المتعلقة باستخراج جواز سفر أخر.

وبالفعل ذهبت سهر إلى مقر السفارة المصرية في باريس وأتمّت الإجراءات المطلوبة عدا إجراء أخير في الشؤون القانونية للسفارة، جلست في منطقة الانتظار داخل السفارة لكن حظها العثر جعل الانتظار يطول بسبب حدوث خطأ في بعض الأوراق، حقيقة ما من فائدة سواء إن كنت في القاهرة أو في باريس حتى وإن وصلت إلى المريخ فلن يتغير الموظف المصري، سيظل كما هو باقٍ بإهماله وتأخره عن الوقت المحدد في إنهاء الأشياء إلى أبد الآبدين.

على كل حال فكرت سهر بما أن الأمور لا تختلف كثيرًا عما هي عليه في مِصر بأن تذهب إلى المحامي المسؤول عن الشؤون القانونية في السفارة وتقوم باستعجاله لإنهاء أمر الأوراق لأنها لا تمتلك الكثير من الوقت، طرقت باب المكتب ودخلت في هدوء محاولة ألا تنفعل، كان الرجل يُدير ظهر الكرسي في تجاه الحائط فلم تر وجهه في حين كان هو يتحدث في الهاتف، لكنه أشار بيده لها حتى تتخذ لنفسها مقعدًا وكان على وشك إنهاء المكالمة وما إن أدار كرسيه حتى كأنت المفاجأة، نعم هو مرة أخرى!

سهر: لا..لا..لا ليس مرة أخرى! قالتها جهرًا هذه المرة.

سليم: هذا يزيد عن الحد بالفعل! كثُرت صدفك يا سهر، أليس كذلك؟

سهر: ألست محاميًا في إحدى الشركات القانونية الخاصة؟! ما الذي أتى بك إلى هنا؟

سليم: وكذلك المحامي المسؤول عن الشؤون القانونية في سفارتنا في باريس، لم تتح لي الفرصة حتى أحدثك، على كل حال ها هي أوراقك كاملة

لا ينقصها شيء وخلال أربع وعشرين ساعة ستتسلمين جواز سفرك الجديد.

لم تنطق سهر بكلمة واحدة وهمت بالانصراف وحين تركت مقعدها واتجهت نحو باب غرفة المكتب وقبل أن تمسك بمقبض الباب قاطعها سليم قائلًا: أما زلت تمتلكِين ذلك الأسلوب الدرامي في التعبير عن الأشياء؟! ما زلت تخشين المواجهة.. لكن على كل حال ما زال أسلوبك الأدبي جيدا لا بأس به.

التفتت سهر نحوه وقد رُسمت على وجهها ابتسامة طغى عليها الاندهاش وقالت: حقًّا! أما زلت تذكر؟

سليم: ومن يستطيع أن ينسى؟

سهر ويبدو أنها قد أفاقت من سكرتها هذه: نحن بشر، لكل منا طريقته الخاصة في التعبير عن الأشياء، لا تهم الطريقة التي نعبر بها عما بداخلنا بقدر ما يهم أن نبوح بما في أعماقنا، والآن اسمح لي في الرحيل.

اتجهت سهر نحو المران مباشرة، لم تتحدث لأي من زملائها في العمل، كانت في عالم آخر كان جسدها حاضرًا يمارس عمله مع الجهاز الطبي للفريق ويفحص قوة العضلات لأحد اللاعبين وكان عقلها وقلبها في عالم آخر يخوضان حربًا مع الأفكار والتساولات:

هل حقًّا هذا هو القدر؟ أم أنها مجرد صدف لا تهدف إلى شيء؟

هل ألقى القدر بسليم في طريقي حتى يساعدني على تخطي أزمتى، تلك الأزمة التي دمرت روحي بعدما أشعلت النيران بها وبي في الوقت نفسه؟

هل من المقدر لي أن أتخلى عن مخاوفي وحزني؟

هل تمد الدنيا لي يدها لتصافحني من جديد بعد ما بدر منها ما بدر؟

بالطبع لم تصل سهر لأي جواب في ذلك اليوم، لقد انفتح سرداب من الأسئلة ربما لن تستطيع إغلاقه أبدًا. لذلك قررت سهر ألا تبحث عن حلول أو إجابات، ستترك كل ما مرت به من صدف ومفاجآت، أما الآن فأصبح كل ما يؤرقها ذلك الشعور التي لا تريد أن تمر به ثانية، فهل تترك بعثة المنتخب الوطني وتحلق عائدة إلى وطنها؟ أم تستمر في رحلتها ولا تهرب من المواجهة بل تقف للأمور كفارس نبيل سلَّ سيفه ولا تسمح للصدف بإفساد حياتها؟

أشرق فجر يوم جديد.. الحمد لله ما زلت على قيد الحياة، وعلى الرغم من أنني على حالي عالقة لم يتغير شيء إلا أنني سعيدة نوعًا ما، مشهد شروق الشمس الرائع هذا وهي تكسو بشعاعها الذهبي الأرجاء كلها على حين تصحو الطيور طيرًا تلو الآخر ويبدأون في التحليق معًا كسرب واحد مشهد عبقري من صنع الخالق يستحق السعادة، يبدو وكأنه سيمفونية تُعزف بدقة وإحكام، لا يشذ مخلوق عن اللحن ولا تصدر الآلات إلا أصواتًا محسوبة فيا لقدرة الله سبحانه وتعالى، أشعر وكأنني اليوم أرى الحياة من زواية مختلفة، زاوية تغزوها الشمس بإضاءتها الوهاجة من كل جانب حتى إنها تزيل الظلمة عن الأركان.

لن أكف عن المحاولة في الصعود والنجاة من ذلك المأزق، ما دامت أنفاسي تُداعب بعضها البعض فسأحاول ١..٢..٣..٤..٥..٦ هيا أيتها الأقدام تمسكي جيدًا، ها أنا أتحرك نحو الأعلى وهناك على مرأى بصري يوجد ما هو أشبه بالمسطبة الصغيرة أو الصخرة المسطحة، إنها على بعد نصف متر تقريبًا، أيها الجسد المنهك ويا أيتها الروح المتعبة تماسكا جميعًا حتى نقطع تلك المسافة من التسلق..حينها قد نكون اقتربنا من الخلاص.

بعد مرور ٤ ساعات..

لا أصدق! فعلتها.. أنا أجلس الآن على ذلك الركن الذي لم أتخيل أنه في إمكاني الوصول إليه، لم يخطر على بالي أنني سأحظى بقسط من الراحة وأنا عالقة على هذا الجبل، لا أصدق، لست عالقة الآن، نعم ما زالت أمامي معركة حتى أقطع المسافة المتبقية من ذلك الجبل ولكنني سأرتاح

لفترة من الوقت على الأقل، الحمد لله على الصبر والجلد، الحمد لله الذي يسر لي الصعود حتى رأيت ذلك الركن الصغير.

هل يوجد ما أسكن به شعوري بالجوع؟ أتذكر كانت لدي كمية بسيطة من المكسرات، سأبحث عنها لا بد وأنها في مكان ما في الحقيبة، ها ها هاى.. وجدتها كمية لا بأس بها من السوداني والمكسرات، إنه ليوم رائع بكل المقاييس. وبينما أتناول حبات السوداني تلك سأسمع أذني جزءًا من القصة.

اتخذت سهر القرار السليم بخصوص سليم، قررت أن تبقى ماكثة مع البعثة فلن تغادر إلى أي مكان ورأت أنه ينبغي عليها مواجهة مشاكلها ومخاوفها وربما سليم أيضا، لطالما تمتعت دومًا بالقوة والشجاعة فلماذا الهرب الآن؟ إنه لمن شيم الجبناء، أما سهر فلا تترك ميدان المعركة أبدًا، وكذلك أنا.

ذهبت سهر إلى مقر السفارة المصرية بعد أربع وعشرين ساعة لتسأل عن جواز السفر الجديد فأبلغتها الموظفة بأن السفارة قد أرسلته بالفعل إلى الفندق، عادت إلى هناك وسألت الموظف الجالس في مكتب الإستعلامات فأخبرها بأن ذلك المحامي الذي رآه أكثر من مرة قد جاء وسأل عنها ولكنه رحل حين علم أنها لم تكن بالفندق.

أخذت سهر تهمهم إلى نفسها وهي تسير نحو الأسانسير (المصعد): اليوم هو يوم الأحد، عطلة رسمية وقد ذهب الفريق بجهازيه الطبي والفني لرؤية بعض المزارات السياحية ماذا سأفعل أنا الآن؟ على كل حال أشعر بأنني لا أريد سوى الاسترخاء في غرفتي.

بالفعل صعدت سهر إلى غرفتها وأعدت كوبًا من القهوة مع إضافة بعض قطرات اللبن لها وأخذت تحتسيها وهي تتناول قطع البسكوت المغطى بالشيكولاتة وتنظر تجاه النافذة المطلة على برج إيفيل، إنه منظر لا يقدر بثمن في رأيي، لكن رن هاتفها المحمول فقطع ذلك السكون الساحر.

المتصل: بونجور..*ثم استرسال من الفرنسية الخالصة*

سهر لم تعط اهتمامًا لما يقال لأنها علمت منذ الكلمة الأولى أنه سليم يُحدثها فقاطعته قائلة: ممثل ضعيف..كيف حالك؟

سليم: على ما يرام، ماذا عنكِ سيدتي؟

سهر: منذ متى وأنت لبق؟

سليم: إننا في باريس، موطن الحديث المنمق والجمال في أدق الأشياء، ثم لا تنسي كنت دومًا لبقًا!

سهر: ها ها، يبدو أن السنوات التي قضيتها في باريس أصابت ذاكرتك بالفتور، لم تكن يومًا ذلك الولد الذي يتحدث بشكل لبق أو جذاب بل كنت كثير الخجل في كثير من الأحيان وفي أحيان أخرى تكون على النقيض تمامًا فتتحدث بأسلوب يميل في جرأته إلى الوقاحة، صدقني كنت كل شيء عدا أنك كنت لبقًا.. لم أفهمك يومًا صدقني.

سليم: اووه، ربما لذلك السبب أنتِ هنا الآن.

سهر: ماذا!

سليم: لا شيء، أود أن أسلمكِ جواز السفر الجديد واليوم الأحد عطلة كما تعلمين، دعينا نذهب إلى أي مكان ونحتسي القهوة معًا، هناك مقهى مميز في شارع الشانزليزيه، سأرسل لكِ العنوان ولنتقابل في السادسة مساءً.

سهر: يبدو لي ذلك جيدًا، لقد ذهب الجميع هنا في نزهة وأنا أشعر بالملل منذ عودتي من مقر السفارة، سآتي في الموعد.

بدأت سهر في الاستعداد للموعد بعد ما أغلقت هاتفها على الفور، اتجهت نحو الخزانة التي قد سبق وعلقت فيها ملابسها لتختار شيئًا مناسبًا لارتدائه، أخذت تمرر شماعة تلو الأخرى وتعيد ذلك مرات ومرات لا تدري أي نوع من الملابس تختار ولأول مرة منذ زمن بعيد تشعر بهذه الحيرة في

أثناء ارتداء الملابس ففي العادة كانت سهر سريعة الاختيار ولا تأخذ الكثير من الوقت مثلما تفعل في هذه اللحظات، صارت تحدث نفسها بصوت مرتفع وهي تسير يمينًا ويسارًا أمام الخزانة المفتوح بابها على مصراعيه: "ماذا عليّ أن أرتدى؟ هل بنطالًا أسود اللون مع القميص الأبيض إلى جانب ذلك البالطو الأزرق أم شيئًا أكثر راحة كالجينز مع البلوفر الأحمر إلى جانب حذائي الرياضي المفضل ذي اللون الأبيض؟ "

وبينما هي غارقة في حيرتها ظهر فستان أبيض اللون ينتمي إلى الطراز الذي يتماشى مع الجسد في تناغم رائع، ضيق إلى حد ما لكن ليس للحد الذي يصف جسم المرأة، يبدو كالقطعة الواحدة وقد نقشت أسفله بعض الوردات الصغيرة ذوات اللون الأحمر المبهج، كما وجدت بعضا من تلك الورود على الكتفين، ظهر الفستان وبدا لسهر كأنه يتلألأ وسط ملابسها حتى إنها شعرت أنه يتحدث إليها ويقول: "نعم أنا الاختيار المناسب لتلك الأمسية "، فالتقطته سهر سريعًا دون تردد وأخذت تبحث في صندوق مجوهراتها عن شيء يناسب ذلك الفستان وبعد بحثٍ وتدقيق استقرت على عقدٍ من اللآلئ البيضاء، رتبت الأشياء ثم ذهبت لتستمتع بحمام ساخن وبعد ذلك انتقلت إلى المرحلة التالية وهي تصفيف شعرها ذي اللون الأسود والملمس الناعم.

في حقيقة الأمر ليس من السهل ما تفعله المرأة حتى تستعد لأي موعد أو نزهة، فأن تكون امرأة، ذلك يعني الكثير من الجهد والملابس والاكسسوار وساعات من الحيرة تُهدر في أثناء عملية الاختيار على عكس أن تكون رجلًا تنجز الأشياء في سهولة وسرعة أما الاكسسوار لديك فلا يتعدى ساعة اليد

أو رابطة العنق الخاصة بك، على كل حال أتمت سهر استعدادتها الأخيرة واستقلت إحدى سيارات الأجرة أو التاكسي التابعة للفندق واتجهت نحو الشانزليزيه، على وجه التحديد نحو المقهى الذي أرسل لها سليم عنوانه في رسالة نصية.

وصلت سيارتها إلى الشانزليزيه، فغادرتها وفضلت أن تسير على قدميها قليلًا بعدما لمعت أضواء الشانزليزيه الرائعة في عينيها، هذه هي المرة الأولى التي تراه، ظلت تتجول وروحها تزداد سعادة شيئًا فشيًا، لا أعلم إن كان ذلك بسبب رؤيتها للشانزليزيه لأول مرة أم لأنها ذاهبًة لتسلم جواز سفرها الجديد أم أن وراء تلك السعادة سببًا آخر، وجدت المقهى المقصود وبدأت تخطو بين طاولاته ببطء وعيناها تبحث عن سليم وسط الجالسين حتى سمعت صوتًا يقول لها: اووه.. هل تبحثين عن شخص ما سيدتي؟

سهر: سليم! خشيت أن أكون قد ضللت العنوان.

سليم: تبدين في غاية الجمال، هل هذا سحرك أم سحر باريس عليكِ؟

سهر وقد احمر خداها قليلًا: كيف حالك يا سليم؟

سليم: أفضل من أي وقت مضى، تفضلي هذه الوردة الزرقاء لكِ.

سهر: لا يعقل، أنت تفاجئني كثيرًا هذه الأيام، من أنت؟

سليم: أعلم جيدًا أنكِ لا تهتمين كثيرًا بالزهور ولكن هناك تقليد قديم أو عرف في باريس أن تُهدي وردة لأي امرأة تزور الشانزليزيه لأول مرة، حتى تضفي هذه الوردة تميزًا على ذكرى هذه الزيارة، هل نجلس الآن؟

سهر وقد رُسمت على شفتيها ابتسامة ساحرة: أجل، وشكرًا على هذه الوردة.. إنها حقًّا رائعة، أتعلم هذه هي المرة الأولى التي أمسك فيها بيدي وردة زرقاء اللون، رأيت مثلها على مواقع الإنترنت وتمنيت فعلًا لو أجد مثلها.

سليم: هذا رائع! بالطبع أنا لم أكن على علم بأنك لم تري مثلها قط، لكنني كنت على يقين إن كانت تلك الوردة ذات أي لون آخر سوى الأزرق ما كانت راقت لكِ.

سهر: ما زلت تتذكر!

سليم: لم أنسَ قط، الأزرق بجميع درجاته وهذه الدرجة بالتحديد، اللون المفضل لديك، كان دومًا كذلك في طفولتنا أما أنا فكنت أفضل..

سهر: اللون الأحمر، لم أنس أنا أيضًا.

هنا علت ابتسامة وجه سليم أضاءت ملامحه وكأن الشمس قد سلطت أشعتها عليه فجأة ولمعت عيناه مثلما كانت تفعل قديمًا عندما يرى سهر، تلك اللمعة البريئة في عيون ذلك الولد صغير السن حينها لم تتغير حتى الآن، لم تلوثها الأيام.

أفاق سليم سريعًا من سكرته وأعطاها جواز السفر الجديد قائلًا: ها هو جواز السفر الخاص بكِ، أتمنى ألا تفقديه مرة أخرى، لن يعيد لك القدر أشياءك الضائعة في كل مرة، فليس كل ما يُفقد يعود.

سهر: لم أُضعه قط! لقد سُرق مني، سُرقت الحقيبة بكل ما فيها، أنسيت؟!

سليم: على كل حال ماذا فعلت بكِ هذه السنوات العديدة؟

سهر: ألا ترى! أمامك طبيبة بعثة المنتخب الوطني بنفسها، تتحدث إليك في تواضع.

سليم: أوهوهوه.. لا تنسي بأن تلك الطبيبة كانت ستتعرض لكثير من المشاكل لولا وجود ذلك المحامي الرائع، لا داعي للغرور عزيزتي.

سهر: من الذي يتحدث عن الغرور؟ المحامي المغرور نفسه!

سليم: أتعرفين، لم تتغيري قط وكأن عمرًا لم يمر، هل نرحل من هنا ونتجول قليلًا؟

سهر: هيا بنا، بدأت أشعر بالملل كلما ازدادت أعداد الناس من حولنا.

دفع سليم الحساب أو الشيك بلغة المقاهي والمطاعم وانطلقا إلى شوارع باريس وبينما يتجولان في صمت، قطع سليم ذلك السكون الذي حل عليهما بسؤال عاصف مكون من كلمة واحدة فقط " لماذا؟ "

نظرت إليه سهر في تعجب وسألته: لماذا ماذا؟

سليم: لماذا لم نعد أصدقاء.. أقصد ماذا حدث، لماذا لم نبق على تواصل طيلة تلك السنوات الماضية؟

سهر: لا أعلم، ربما لأن كلا منا سلك طريقًا مختلفًا وترتب على ذلك العديد من الاختيارات والقرارات، لا أدري ولكن هذه هي الحياة، كانت وستظل.

سليم: وهل ما ذكرته على التو يمنع أن يتواصل الأصدقاء مع بعضهم البعض بين الحين والآخر؟ هذا غير منصف أو عادل على الإطلاق!

سهر: لماذا تعطي الأشاء أكبر من حجمها؟ هذا ما حدث وقد كان، صدق من قالوا بأن باريس تتلألأ ليلًا وتصبح أكثر جمالًا مما تكون عليه في الصباح.

سليم وكانت سهر قد سبقته بعدة خطوات: انتظري لحظة!

سهر وقد توقفت مكانها بجانب فاترينة عرض لأحد المتاجر: ماذا بك؟!

سليم ممدا يده ليصافحها: هل تقبلين صداقتي مرة أخرى؟

سهر والذهول والارتباك سيطرا عليها: منذ متى وأنت تتصرف بأسلوب سينمائي هكذا؟!

سليم: هل تقبلين صداقتي مرة أخرى؟

سهر مصافحة إياه في سعادة وفرحٍ لم تستطع إخفاءه: أجل، أقبل، ثانيًة.

ومثلما ولدت صداقة جديدة عندما تصافحا لأول مرة عند باب المدرسة قديمًا، تجددت تلك الصداقة الآن وولدت في طورٍ آخر في مكان آخر بل في وقت آخر حين تصافحا في شوارع باريس، لكن هذه المرة ربما تأخذ هذه الصداقة منعطفًا مختلفًا.

انتهت هذه الليلة وعاد كل من سهر وسليم إلى مسكنه الخاص، سليم إلى شقته الفاخرة وسهر إلى غرفتها في الفندق الذي تقيم فيه مع بعثة المنتخب الوطني، عاد الاثنان وقد تركا أرواحهما هناك، تتراقص فرحًا في شوارع باريس لعودة صداقتهما مرة أخرى.

آه.. يبدو أنني استرسلت في الحكي ولم أنتبه أن حبات السوداني قد أوشكت على الانتهاء! على كل حال تمتعت بقسط من الراحة والطاقة على حد سواء، أصبح الآن جسدي قادرًا على البدء من الجديد، انتعشت روحي بعض الشيء، سأواصل الصعود والتسلق.

بعد مرور ثلاث ساعات من التسلق..

تبًّا ما هذا! لم يكن ينقصني سوى ما أنا فيه الآن، أهناك الأسوأ من أن تكون عالقًا على جبل بين السماء والأرض لا تفوز بالحياة ولا يطالك الموت؟ نعم هناك الأسوأ، فوق كل هذا حُشرت أحد أقدامي داخل ثغرة صغيرة لم أنتبه لوجودها في ذلك المكان الضيق.

مرة أخرى.. لا.. لا يصدق.. بات الأمل يغمرني أما الآن فسأظل عالقة إلى ما لا نهاية، لن أتقدم خطوة إلى الأمام وأخشى السقوط مرة أخرى.

أشعر بالعطش والاحتياج الشديد إلى الماء، لا أستطيع التحرك حتى لا تنفلت قدمي الأخرى، يا إلهي ماذا عليَّ أن أفعل الآن؟، ساعدْني رجاءً يا ألله، أشعر بدمعات صغيرة تتساقط من عيني فتلامس خدي المسكين، سأحاول التماسك حتى لا أسقط فريسة لليأس، فإن فعلت سأصبح قربانا يقدم على مائدته، سأكون في عداد الأموات بعد عذاب!

أنا بخير.. أنا بخير.. سأقولها وأكررها عدة مرات على نفسي، لا يلزمني سوى الهدوء والتحلي ببعض السكينة حتى أعثر على حل لتحرير قدمي، سيكون كل شيء على ما يرام، لا داعي للفزع، نعم.. أنا بخير..

اهدئي أيتها الروح، لنر ماذا حدث لسهر هي الأخرى.

بات سليم أكثر إشراقًا وحيوية وسهر يتملكها شعور خفي بأن تلك الصداقة لن تدوم طويلًا أو أن تلك الأجواء المسالمة سيعكر صفوها أمر ما، كانت ترى بأن ذلك هو السكون الذي يسبق الطوفان.

لكن لم يمنعها ذلك من الاستمتاع بعض الشيء، أصبحت تلتقي بسليم يوميًّا بعد أن ينتهي كل منهما من عمله وإن لم يجدا الفرصة يظلان يتحدثان لساعات عبر الهاتف وذات يوم وفي أثناء تناولهما الفطور سويا في أحد المطاعم الفرنسية سألها سليم: هل كان كل شيء على ما يرام طيلة السنوات الماضية ومنذ رحيلي؟ أم أن هناك ما تخفينه؟ وقد أنهى سؤاله بابتسامة بها بعض الخبث واللؤم المصري الأصيل، فهناك ما في الجينات ما لا يمكن تغييره أبدًا.

سهر دون تردد: بالطبع لم يكن كل شيء على ما يرام وإلا ستفقد الحياة معناها، أحيانًا على المرء أن يعاني آلامًا ونكبات حتى يدرك تمام الإدراك أن كل مر سيمر.

سليم: يبدو أنكِ لم تصبحي طبيبة فقط بل فيلسوفة مُخضرمة أيضًا!

سهر: الأيام خير معلمٍ وأستاذ، لم أعد أبدًا سهر التي كنت تعرفها، تلك التلميذة التي كانت تنبض بالحيوية وحب الحياة، لم يعد لدي من النشاط والبهجة شيء، لم تترك لي الأيام أي شيء، سهر تلك قد افترسها الاكتئاب منذ زمن بعيد، وافتها المنية منذ سنوات أو لعلها في مكان أفضل الآن.

سليم: ما هذا كله؟ هل أنتِ بخيرٍ؟ للحظات شعرت أنني أرى شبحًا مخيفًا وليس سهر!

سهر وهي تحاول الإمساك بدموعها: لا تأخذ قولي هذا على محمل الجد، أحيانًا أظل أهذي ببعض الأشياء هكذا.. لا تهتم، سأتجه نحو المران الآن لأباشر عملي مع الجهاز الطبي، أراك لاحقا.

غادرت سهر المطعم وظل سليم باقيًا يتناول قهوته ويفكر فيما أفضت به سهر من حديث غريب! تُرى ما الذي حل بها؟ ثم قال في نفسه: " لوهلة من الزمن شعرت بأنني أجلس مع شخص آخر، من هذه؟! وما الذي قد يحل بالإنسان فيحوله إلى جسدٍ بلا روح، حيا يتنفس ويذهب إلى عمله في كل صباح ويقابل الناس هنا وهناك ولكن رغم كل هذه الأمور إلا أنه ميت! هل أبالغ في الأمر؟ لا أعتقد ذلك والآن لا أريد سوى معرفة كل شيء عن السنوات الماضية "، ثم أنهى قهوته وغادر المكان هو الآخر ذاهبًا إلى عمله.

كانت هذه الكلمات التي تنطوي على الكثير من علامات الاستفهام في نظر سليم بمنزلة ناقوس الإنذار والذي يشير بأن هناك شيئًا ما غير طبيعي بهذه الفتاة، لا يعرف ماذا حل بها أو بماذا مرت لكن ثمة أمر غير عادي.

ورغم كل ما يدور في رأس سليم من أفكار وأسئلة إلا أنه حاول أن يباشر عمله ولا ينتبه لمثل هذه الأشياء حتى وجد هاتفه يرن وكانت سهر هي المتصلة.

سهر: سليم كيف حالك؟، أعتذر إن كان اتصالي هذا قد جاء في وقت لا يلائمك أو في أثناء انشغالك بأعمال أخرى.

سليم: ما الذي تقولينه! ألم نجدد صداقتنا منذ عدة أيام؟ والقاعدة الأولى بين الأصدقاء أنه لا مكان للاعتذار بينهم، كيف كان عملك اليوم؟

سهر: مر على خير واللاعبون جيدون، باتوا في المرحلة شبه النهائية من الاستعدادات للبطولة، أ..أ كنت أريد أن اقول لك شيئًا.. اليوم..أ..أ

سليم وقد لاحظ التلجلج في صوتها لأول مرة منذ معرفته بها: ماذا حدث اليوم؟

سهر: لا شيء، أخشى أن أكون قد تفوهت ببعض الأشياء السخيفة أو غير المفهومة، أشياء عن اكتئاب أو أنني لم أعد أنا، أرجوك لا تأخذ كلامي هذا على محمل الجد، لم تكن هذه فلسفة أو نوعا من أنواع الفضفضة كما تعتقد بل لم تكن شيئًا على الإطلاق، أنا بخير وما كانت هذه الكلمات سوى حديث عفوي يحدث بين الأصدقاء، ألسنا كذلك؟

سليم: بالطبع نحن كذلك، كنا وسنظل، على كل حال لا تقلقي، فأنتِ لم تسمعي الكثير مني أيضًا ولربما أتفوه بأشياء أسوأ. لا تقلقي، هل سأراكِ غدًا؟

سهر: لا أعرف، اترك الأمور تسير وحدها، أعني أنه أنا والجهاز الطبي للفريق لدينا الكثير من العمل غدًا لذلك ربما لا أستطيع رؤيتك.

سليم: سأتصل بكِ لنرى ما يمكننا فعله، أتمنى لكِ نومًا هادئًا.

أنهى سليم الاتصال وقد تأكد له أن ثمة شيئا ما غريبا وما كانت مكالمة سهر إلا محاولة لإخفائه، تلك المرأة التي كانت تحدثه بصوت مهزوز وبه رعشة خفيفة نتج عنها تأتأة وتلجلج لم تكن أبدًا هي سهر التي عرفها دومًا.

قرر سليم بدافع من الفضول المبدئي ألا يلتقي بسهر في اليوم التالي وفكر بأن يلتقي بمدرب الفريق خارج الفندق، يبدو أن الرجل على معرفة جيدة بسهر وذلك اتضح عندما التقى به في المرة الأولى عند وقوع الحادث، ربما يجد عنده بعض التفسيرات أو أجوبة للأسئلة التي صارت تزحم رأسه.

اتصل بالفعل بمدرب الفريق أو المدير الفني والذي كان قد سبق وأعطاه كارت دُونت به بياناته الخاصة عندما زاره في مكتبه، طلب منه سليم أن يتقابلا في مقهى ما في حي قديم، وبما أن الرجل صديق قديم لوالده وافق على الفور ورحب بالفكرة ووصل في الموعد المحدد.

سليم: كيف حالك سيدي؟ وكيف حال الفريق؟، أتمنى أن تحققوا اللقب وتفوزوا في جميع المباريات القادمة.

المدرب: لعل الله يكون معنا وفي عوننا وينصرنا إن شاء الله، المباريات ليست سهلة أبدًا وجدولنا مزدحم للغاية، على الأرجح أنه سيكون وقتًا صعبًا ومرهقًا على الجميع.

سليم: وكيف حال طاقمكم الطبي وسهر؟

المدرب: على ما يرام، هدئ من روعك، إنني أراك في حيرة من أمرك وهاتان الحدقتان الزرقاوتان تنبضان بالأسئلة! هل كل شيء بخير يا بني؟

سليم: في حقيقة الأمر قد طلبت مقابلتك لأستفسر عن بعض الأشياء تحديدًا عن سهر، منذ متى وأنت تعرفها؟ هل كان كل شيء معها على ما يرام في السابق؟

المدرب وقد بدا عليه الارتباك والتوتر لكنه حاول إخفاء ذلك قبل أن يلاحظه سليم: ياه هـ هـ.. أعرفها منذ كانت طفلة صغيرة، فأنا صديقٌ لوالدتها منذ أن كنا جيرانًا في المنطقة نفسها قبل أن تتزوج من والد سهر وظللنا على اتصال بعدما تزوجت بين الحين والآخر.

سليم: هذا جيد، ربما أجد لديك بعض الإجابات إذًا.

المدرب وقد بدأت لهجته تحتد شيئًا فشيئا: إجابات عن ماذا؟ سهر طبيبة في المنتخب الوطني وأحد أعضاء الطاقم الطبي له وهي بخير، هل تريد شيئًا آخر؟!

سليم: ماذا بك يا سيدي الفاضل؟ وما لك قد تغيرت فجأة؟ أنا أعرف هذه الأشياء وهذه إجابة غير التي طلبتها عن سؤالي، على كل حال أنا لا أريد التطفل إن كنت تظن ذلك بى، كل ما في الأمر أنني كنت صديقًا لسهر منذ طفولتنا وظللنا هكذا لفترة طويلة من الزمن حتى شاءت الأقدار فافترقنا وسلك كل منا طريقًا غير الآخر، فلا أعلم ماذا حدث لها طيلة عشر سنوات وربما أكثر بقليل، لا شيء أكثر من ذلك.

المدرب: عجبًا! لم تذكر لي سهر أمر صداقتكما القديمة من قبل، هذا جيد، أعني أنه من الجيد أن تعثر على رفيق قديم بعد طيلة هذه السنوات ولكن صدقني أنا لا أعرف عنها الكثير كما تتخيل، هي تعمل معنا منذ ثلاث سنوات وما أراه أنها طبيبة ماهرة تحب عملها وكذلك عملها يبادلها الشعور ذاته، اسمح لي الآن في المغادرة فلدينا مران في الصباح الباكر ومن المهم أن أحظى بقسط كاف من النوم.

غادر المدرب سريعًا وأدرك سليم أن ذلك الرجل يعرف الكثير عن سهر ولكن لسبب ما لا يعلمه يخفي ذلك ويتهرب من الإجابات في خُبث شديد بل إنه يكاد يكون كاذبًا، كل هذه الأمور بدأت تحيط سليم بالكثير من التساولات والقلق.

جاء اليوم التالي وقد راح سليم في النوم لوقت أكثر من اللازم، فصحا متأخرًا عن موعده ولم يذهب إلى العمل وفكر بأن يزور سهر في المران، لعله يجد في هذه الأجواء ما يساعده على حل تلك الألغاز التي باتت تظهر له واحدًا تلو الآخر، وصل إلى المكان وجلس في المقصورة العليا حتى لا يراه أحد وظل يراقب من على بعد إلى أن وقعت عيناه على سهر وهي تفحص لاعبًا قد أصيبت قدمه اليسرى، كان كل شيء يبدو طبيعيا في ظاهره ولكن ما إن تمعن في النظر حتى وجد سهر تعمل دون روح أو ابتسامة، وكأن اللاعب يُفحص من قبل إنسان آلي، لم يبالغ سليم في وصف ما شاهده بل لربما كان تشبيهه هذا أبسط بكثير من الواقع ذاته.

انتظر سليم حتى انتهى الفريق من المران المحدد لذلك اليوم واتجه نحو غرفة الجهاز الطبي ليقابل سهر، طرق الباب الذي عُلقت عليه لوحة كُتبت بالفرنسية (Emloyés Seulement) أي للعاملين فقط، فتحت سهر الباب ولم تكن على علم بهوية الطارق حينها وفوجئت بوجود سليم أمامها وقد بدا أنيقًا للغاية، فابتسمت قائلة: سليم! لماذا أنت هنا؟ أليس من المفترض أن تكون في عملك الآن؟ ثم سألت إحدى الطبيبات معها: اليوم ليس عطلة في البلاد أليس كذلك؟ ثم التفتت مرة أخرى نحو سليم وسألته: لماذا يخيم عليك الصمت هكذا؟

أجابها سليم: جئت كي آخذ صديقتي لتناول الغداء سويا، فهل هي مستعدة حتى نرحل من هنا؟

سهر: بكل تأكيد إن صديقتك تتضور جوعًا.

ركبا السيارة سويا واتجها نحو أحد المطاعم وفي أثناء الطريق إلى هناك بدأ سليم ينهال على سهر بالعديد من الأسئلة عن نفسها وعن عملها، لم يكن يريد بالطبع أن يسألها مباشرة حتى لا يثير شكوكها أو غضبها على الأقل، وكانت إجاباتها لا تفيده بشيء وفجأة قالت:

أتعلم يا صديقي، مررت بالعديد من الأمور، الكثير من الاضطرابات، لم يعد لي أحد، تركني الجميع منذ عقود طويلة وأنت منهم بل إنك كنت أولهم، أول الذين خذلوني ورحلوا بعيدًا وعلى الرغم من ذلك كنت أكتب إليك كل يوم طيلة العشر سنوات الماضية، لا لكي تعود ولكن فقط لأنني كنت أشعر بالراحة والاطمئنان، والدليل على قولي هذا أنه لم يصلك مني أي شيء خلال السنوات الماضية، فقط بقينا على عدم التواصل، كنت أكتب لك دومًا وأحتفظ بتلك الأحاديث لنفسي، لا أعلم لماذا أقول لك هذا الآن!

سليم: ربما لا أجد ما هو مناسب لقوله ولكنني أريد منكِ أن تقبلي أسفي واعتذاري عما مضى، لا جدوى من الإعتذرات المتأخرة فما بالك إن تأخرت عشر سنوات لكنني على أمل أن يخفف ذلك من حدة التوتر التي ألاحظها بيننا.

سهر: قد قبلت اعتذراك منذ أيام بالفعل حينما قبلت صداقتك مرة أخرى وإلا ما كنت معك الآن.

سليم: عظيم! لندخل الآن إلى المطعم وبما أننا قد وصلنا بالفعل، أود أن أقول لكِ إن هذا المطعم يقدم أفضل المأكولات اليونانية التي قد تتذوقينها في حياتك، أراهنكِ على ذلك، لن تنسيه أبدًا.

سهر: يبدو ذلك مشوقًا.

سليم: لذلك اسمحي لي أن اقوم بالاختيار لكِ اليوم.

سهر: أوافقك الرأى.

طلب سليم بعض الأطباق ومن بينها ما يسمى "بالموساكا"، طبق يوناني يشبه في مكوناته المسقعة المصرية ولكنه عبارة عن طبقات من الباذنجان المحمص والبطاطس المهروسة إلى جانب طبقات من شرائح الفلفل الأخضر وحلقات الطماطم يغمرها قليل من صوص الطماطم فيضفي الألفة بين المكونات ويعطي مذاقًا باهرا، لاقى هذا الطبق إعجاب سهر الشديد بل يبدو أنه سحرها، حيث إنها قد صاحت فجأة في أثناء تناولهما الغداء قائلة: سليم! إنها رائعة بل عبقرية قل لي ماذا تسمي تلك الأكلة مرة أخرى.

سليم ضاحكًا: مو- سا-كا.

سهر: أحببت تلك الموساكا كثيرًا حتى إنني أريد أن آخذها معي إلى مِصر عندما تنتهي فترة وجودنا هنا في فرنسا..امم إنها لذيذة إلى أبعد الحدود.

ظل سليم صامتًا شاردًا وكأنه يحلق في عالمٍ آخر، في هذه اللحظات بات وكأنه يتعرف على سهر لأول مرة، يكتشف شيئًا جديدًا في كل مرة يتقابلان فيها، ربما بدأ سليم يحبها مرة أخرى أو أنه بات يراها في إطار جديد.

أنهى الاثنان طعامهما وخرجا من المطعم، أقلّ سليم بسيارته سهر إلى الفندق ثم عاد إلى منزله ودخل في سُبات عميق بعد هذا اليوم المليء بالتفاصيل والاكتشافات.

أما سهر فلم يزرها النوم طيلة تلك الليلة، كانت تفكر فيما قالت ولماذا فعلت، داهمها بعض القلق خوفًا من أن ينفضح أمرها ويُكتشف ذلك السر الذي طالما أخفته عن زملائها في العمل وعن سليم.

لم يفق سليم من سباته إلا في صباح اليوم التالي وبعدما تناول قهوته واستعاد وعيه عبر حمام ساخن ظل يفكر فيما قالته سهر الليلة الماضية، توالت الأسئلة على رأسه، ما الكثير الذي مرت به ولم تذكره؟ ما سبب ذلك الحزن المقيم والدائم في صوتها وحديثها؟ بالطبع سهر ليست على ما يرام فما الذي يخفيه ذلك المدرب صديق والده؟

اتصل سليم بسهر باكرًا ودار الحوار بينهما كالآتي..

سليم: بونجور أو صباح الخير، كيف حالك؟

سهر: محامينا أصبح فرنسيا خالصًا لهذه الدرجة حتى إنه يهاتفني مبكرًا في هذا الوقت!

سليم: يبدو ذلك سخيفًا، هل يجتمع الطب مع الكسل؟ نحن في السادسة صباحًا الآن، هيا استيقظي لنتناول الفطور معًا.

سهر: أرجوك أريد أن أكمل نومي، أرجئه فيما بعد، إلى اللق..

سليم: انتظري، لن تغلقي الهاتف، استعدي فأنا قادم إليكِ وسأنتظرك لنتناول الفطور في مطعم الفندق.

وكعادة سليم لم يترك لسهر فرصة للهرب أو التملص من لقائه ولكن ما إن وصل إلى الفندق حتى أخبرته إحدى العاملات بأن السيدة تنتظره في غرفتها وقد طلبت الفطور سابقًا إلى أعلى، فاتجه نحو المصعد ووصل إلى غرفة سهر ودق الباب.

فتحت سهر وهي تقول: لم أستطع الهرب منك، لذلك فكرت أن نتناول الفطور هنا اليوم حتى أنال قسطًا من النوم كان سيُهدر في أثناء استعدادي للنزول إلى المطعم، على كل حال تفضل الفطور بجانب نافذتي المطلة على برج إيفيل ليس سيئًا على ما يبدو، أليس كذلك؟

سليم: طفلة.. ما زلت طفلة بل طفلة كسول صدقيني.

سهر: تفضل.. تفضل بالدخول وإلا تركتك وذهبت لتناول الفطور وحدى، نداء معدتي يجب أن يُلبى أولًا.

سليم: ألم أقل لكِ طفلة! أووه.. ليس سيئًا على الإطلاق، هذا المنظر الخلاب رائع بالفعل، لو كنت في مكانك ما تركت غرفتي أبدًا.

سهر وهي تتناول الفطور الذي وضع بمحاذاة النافذة: قل لي ماذا فعلت منذ مجئيك إلى هنا، كيف كانت أيامك الأولى؟ هل كانت صعبة؟

سليم: ليس إلى حد كبير، فأنتِ تعلمين أنني ابن لأمّ فرنسية، فلم تكن اللغة عائقًا أمامي، لا شيء الدراسة ثم العمل، لا يوجد ما هو بالمثير في قصتي على ما أعتقد، بات البريق الذي شعرت به في أيامي الأولى هنا يقل تدريجيا وصارت الأيام يشبه بعضها بعضا وكأنني أجري في صورة دائرية في متاهتي الخاصة.

سهر ترمقه في خبث: وماذا عن مغامراتك النسائية هل لديك الكثير منها؟

سليم: بالطبع لم تخلو حياتي من بنات حواء ولكن لم تتطور علاقتي بأي منهن، دعيني أقل لكِ كانت علاقتي بهن تنتهي قبل أن تبدأ!

سهر في ضحكات لم تستطع منعها: لا تقل! كنت تهرب فجأة أليس كذلك؟

سليم: لا بل كنت أشعر بالملل أو أن هناك شيئًا ما غير صحيح أو صحي كي أكون أكثر دقة، ذلك الشيء الذي يجعل المرء يهرب عندما يجد إحداهن قد أغرمت به على النحو الذي يخيف.

سهر: لم تتغير على الإطلاق، كما أنت منذ عهدتك.

سليم وقد وجد أن الفرصة قد سنحت له حتى ينبش في ماضيها: وماذا عنكِ أنتِ؟ هل أوقع بكِ أحد في شباكه أم ليس بعد؟

سهر: ها ها ها.. هذا ليس سهلًا، صدقني لم يستطع أي شخصٍ أن يفعل.

سليم في خبث شديد: أهناك سبب حيال ذلك؟ أقصد أنه قد يكون أوقع بك أحدهم قديمًا فلم تستطيعي نسيانه على سبيل المثال.

سهر وقد بدأت تفهم تلميحات سليم: لا أعتقد هذا، أنا على يقين وتأكد من أمرى، لم يحدث ذلك من قبل.

سليم وقد لمس شيئًا في عينيها أكد له أنها لم تنسَ قط: في كل الأحوال يبدو ذلك جيدًا، حيث إنكِ الآن في باريس فلربما تجدي شخصًا في الأرجاء هنا وتغرمين به، إنهم يقولون إن باريس هي المكان الأنسب للوقوع في الحب.

سهر: لن يحدث صدقني و..

سليم مقاطعًا إياها: أتتراهنين معي على ذلك؟

ارتبكت سهر وحاولت تغيير مجرى الحديث فسألته: كم مرة زرت فيها برج إيفيل حتى يومنا هذا؟ أتعلم لم أتمكن من زيارته حتى الآن، لقد كنت ذاهبة إلى هناك يوم أن وقع الحادث المشؤوم وبعدها لم تسنح لي الفرصة مرة أخرى بسبب ضيق الوقت.

سليم متجولًا في أنحاء الغرفة: لا أذكر كم مرة بالتحديد، ربما مئات المرات، ما هذا؟

سهر: ماذا تقصد؟

سليم مشيرًا بإصبعه إلى كيس كبير: ما كل تلك الأدوية والعقاقير؟ هل تعانين من مرض ما؟

سهر وقد توترت قليلًا: أ..لا..إن.. إنه للضرورة فقط، أنت تعلم أنني في بلد أجنبي لذلك أحضرت معي بعضًا من أدوية البرد والمسكنات تحسبًا لأي تعب طارئ.

لم يصدقها سليم خاصة بعد ما بدا عليها التوتر حين أشار ناحية تلك الأدوية فاستخدم الحيلة وطلب منها شاحنا للهاتف، ذهبت سهر لتحضره، فاستغل الفرصة وقام بتصوير بعض عُلب الأدوية وأسماء العقاقير، وعندما عادت سهر بالشاحن استأذنها في الرحيل.

خرج سليم من غرفتها متجهًا نحو صديق له، كان طبيبًا هو الآخر ويدعى جوزيف أندرو حتى يسأله عن ماهية تلك الأدوية وسبب اختلاف شكلها عن أدوية البرد المتعارف عليها.

جوزيف أندرو: صديقي العزيز الذي لم يزرني في عيادتي منذ فترة بعيدة، كيف حالك يا سليم؟

سليم: بخير، في حقيقة الأمر جئت كي أريك بعض الصور لأنواع أدوية مختلفة، ولتقل لي إن كنت تعرف لأي غرض أو مرض تستخدم.

جوزيف أندرو: هل تركت المحاماة وعملت بالتحقيق الجنائي؟!

سليم: لا..لا إنها لصديق وأود أن أطمئن عليه ليس أكثر.

جوزيف أندرو: أرني إياها.

ظل جوزيف أندرو يفحص الصور ويدقق النظر فيها، يكبر صورة تلو الأخرى ثم يعاود تصغيرها حتى مرت خمس عشرة دقيقة.

سليم: ما كل هذا الوقت الذي تستغرقه يا صديقي؟!

جوزيف أندرو: أنصت لي جيدًا، هذه الأدوية والعقاقير يا صديقي ما هي إلا مضادات اكتئاب حاد ومثبتات للمزاج وأخرى للهلوسة وبعض الحالات النفسية المستعصية، إن هذه العقاقير لا تؤخذ إلا في أصعب الحالات، انصح صديقك هذا ألا يتناول الكثير منها لما قد تسببه له من أعراض جانبية قد تبدأ بزيادة سرعة ضربات القلب والرعشة الخفيفة في اليدين ثم التلعثم أو التلجلج في الحديث حتى يصل الأمر إلى النوبات القلبية المفاجئة ثم الموت.

أصاب الذهول سليما وحل عليه صمت مخيف، استأذن جوزيف في الرحيل وغادر العيادة في حالة أشبه بالسكر إثر حِدة الصدمة، استقل سيارته وظل يتجول في شوارع باريس بلا وجهة محددة وهو يتحدث إلى نفسه في صوت مرتفع بعض الشيء: "عقاقير هلوسة ومضادات اكتئاب!

أدوية لتثبيت المزاج والتحكم في الأعصاب! ما هذا كله! ليس من الغريب الآن أن تكون سهر باهتة إلى ذلك الحد، لا أصدق قد حولتها السنين إلى مريضة نفسية، خلقت منها إنسانًا بلا روح مهما حاولت إخفاء حقيقتها فتلك هي حقيقتها، ماذا عليّ أن افعل وكيف لي أن أنقذها؟ هل أسألها عن السبب وراء تلك الأزمة أم سيكون في سؤالي إحراج لها وجرحٌ لشعورها؟ ربما لا تريد أن يعرف أحد بالأمر، لطالما كانت صورة المريض النفسي في أعين الجميع مجنون ذهب عقله وأصبحت أفعاله لا تتوقع، يرميك بنظرات حادة فيبادله من حوله بنظرات من السخرية والفزع، تلك الصورة التي طالما رأيناها في الأفلام القديمة لشخص ذهب عقله فاعتبره الجميع وحشًا وينتهي به المطاف داخل قميص أبيض يُقيد من الخلف حتى لا يتهيأ له الإفلات.

أشعر أن رأسي سينفجر! مرة أخرى يمسني ذلك الشعور المؤلم عندما أرى سهر تصاب بمكروه، لطالما تألمت دومًا لألمها وكنت أتأذى حينما تمرض أو إذا مس الحزن قلبها!

أنا عالقٌ في عالمها!

كانت تلك اللحظات التي مر بها سليم هي الأسوأ والأصعب منذ رحيل والدته عنه.

اه يبدو أننا جميعًا عالقون الآن، أنا هنا على ذلك الجبل بين السماء والأرض، و"سهر" عالقة داخل عالمٍ مظلمٍ كثيفة أشجاره بالاكتئاب والحزن لم يقتحمه سواها، أما سليم فعالق هو الآخر بين الحيرة والأسى لا يدري ما الذي يتوجب عليه فعله!

لنرى كم الساعة الآن.. الثامنة صباحًا، أيها الجسد التعس هل لنا أن نحاول سويًّا ونزحزح تلك القدم ببطءٍ حتى نحررها؟، لنفعل ذلك يا صديقي، هيا بنا.

يمينًا ويسارًا.. مرة أخرى..هيا بنا.

إلى اليمين ثم اليسار، عودة مرة أخرى إلى اليمين.

وبعد مرور ساعة ونصف..

ها ها.. لقد نجحنا، لقد فعلتِها أخيرًا يا قدمي، بتِّ حرة وخرجتِ من محشرك الذي كنتِ عالقة فيه، هنيئًا لكِ ولي.

الآن وبعد أن تحررت قدماي، لنعاود التسلق مرة أخرى، إن القمة تقترب وأمل النجاة يزداد.. هيا يا نفسي لا تيأسي، ستنجحين مثلما نجحت قدمنا.

انقضت ست ساعات..

قطعت اليوم جزءًا كبيرًا من مشوار النجاة! لا أصدق، بدأ الهواء البارد يداعب ملامح وجهي، لم يتبقَّ لي سوى الجزء الأخير حتى أصل لقمة الجبل وأنجو من مأزقي هذا للأبد.

بدأت أمعائي المسكينة تشكو الجوع، أكاد أسمع بكاءها ونحيبها! لم يتبقَّ معي سوى بضع حبات من المكسرات، علينا أن نتحمل معًا وحين ننجو أعدك بمنحك من الطعام كل ما لذ وطاب، لكن اصبري لم يتبقَّ سوى القليل على نجاتنا.

سأكمل لكِ أيتها الأمعاء الجائعة ما بدأناه من حكْيٍ عن سهر وسليم..

بعدما علم سليم بشأن تلك العقاقير والأدوية التي عثر عليها في غرفة سهر، قرر مواجهة المدرب بهذه المعلومات، فلا داعي للكذب أو الإنكار فما يحاول إخفاءه قد اتضح جليًّا الآن، ذهب بالفعل إلى الفندق وطلب مقابلته، جاء المدرب وقد رأى أن "سليم" بدت عليه ملامح الغضب والعبوس.

سليم: سيدي جئت لأمرٍ مهم، لن أدعك تتهرب من الإجابة.

المدرب: يا رباه! أنت مرة أخرى، يبدو أنك قد ورثت العِناد عن أبيك بل تبدو أكثر منه عندًا، ماذا تريد مني؟

سليم: الحقيقة ولا شيء سواها! قل لي لماذا تحمل سهر معها الكثير من الأدوية والعقاقير؟ ما الذي يجعلها تتناول مضادات للاكتئاب، ومثبتات للمزاج وأخرى للهلوسة وأشياء تتعلق بكيمياء المخ؟ ماذا حل بها في السنين الماضية؟ لا تقل بإنك تجهل ما أقوله، أنت على علمٍ بكل شيء.

المدرب: أرجوك ألا تخبر أحدًا عن هذه الأشياء، إن وصل الخبر لأي شخصٍ قد تفقد "سهر" وظيفتها ومركزها الاجتماعي وسط زملائها، هي الآن أفضل من أي وقتٍ مضى، تعمل معنا وتسافر إلى هنا وهناك وبدأت تُصالح دنياها مرة أخرى بعد أن قطعت كل الاتصالات بينهما منذ عدة سنوات، لن تخبر أحدًا يا بني، أليس كذلك؟

سليم: اهدأ سيدي لكن حدثني بكل ما تعرفه من تفاصيل.

المدرب: صدقني أنا لا أملك الكثير من التفاصيل، ذات يوم جاءني اتصال من والدتها وقد كانت صديقة لي منذ زمنٍ بعيدٍ ربما أكون قد حدثتك عن ذلك من قبل، وطلبت مني أن أتوسط لسهر حتى تقبلها الإدراة

هنا في المنتخب الوطني كطبيبة معنا، وافقت على الفور بعدما حكت لي عن قصتها مع المرض النفسي الذي أصابها لما مرت به من أشياء، لكن الموضوع تطور فأُدخلت المصحة النفسية ومكثت بها ستة أشهر وحين خرجت منها كانت أسوأ مما دخلت عليه، تركت المصحة مع الكثير من المهدئات والأدوية والعقاقير التي ذكرتها أنت في حديثك، بالطبع لن يقبل أي مستشفى طبيبًا قد دخل المصحة النفسية من قبل لذلك وافقت، أردت أن أمنحها فرصة للبدء من جديد ثم ما تعانيه ليس جنونًا فلن يؤثر على عملها أو على لاعبينا، بل على العكس إنها طبيبة ماهرة وعبقرية ولما لها من تفوق وافقت الإدراة على تعيينها، لكن دون أن يعلم أي شخصٍ بهذا السر الخطير، بقي شيء واحد أعرفه.

سليم: وما هو؟!

المدرب: سهر لم تعد تتناول تلك الأدوية منذ رؤيتك، يا بني لا أعرف مدى علاقتكما ولكن صدقني باتت أفضل بكثير منذ ظهورك في حياتها، ربما تكون أنت طوق النجاة الذي بعث به القدر في منتصف الطوفان حتى تنتشلها وتنقذها مما هي فيه، لا تجعلها تعود إلى تلك العقاقير أبدًا.

سليم وقد حاول الإمساك بدموعه: سأفعل، أعدك بذلك، لن أسمح بعودتها لذلك الطريق، ربما أنجح في إنقاذها.

احتضن المدربُ "سليم" في فرحٍ شديدٍ ثم رحل.

أما سليم فقد بقي جالسًا يحتسي كأسًا من المياه ويفكر من أين عليه أن يبدأ، ليس سهلًا أن تغامر وتحاول إنقاذ أحدهم من الخوف والقلق والاكتئاب، لكن بالطبع هنا وفي تلك المواقف يتضح الفارق ويظهر جليًّا بين

من يخوض معك حربك ضد هذه الوحوش المخيفة لتعبر أراضي الحزن واليأس والظلام كي لا تكون وحيدًا فتعبرا سويًّا، وبين من ينتظرك هناك على الجانب الآخر المضيء بأشعة الشمس الساطعة ليخبرك بأنه كان يدعو الله لك حتى تنجو!

و بعد تفكيرٍ طويلٍ، توصل سليم إلى أنه خير وسيلة للمساعدة هي أن يواجه سهر بالحقيقة التي اكتشفها، لن يساعدها متخفيًا أو من وراء حجاب، يجب أن يفهم منها ماذا حدث لها وما الذي مرت به، لذلك اتصل بها وأخبرها بأنه في انتظارها أسفل الفندق.

جاءت سهر في إشراق وسألته:

- لماذا أنت هنا فجأة؟ هل كل شيء على ما يرام؟

سليم: تُبدين رائعة كعادتك، لا شيء فقط أشعر أنني لست على ما يرام فهل لنا أن نذهب إلى أي مكان؟

سهر: هيا بنا فلن أبدي أي رفضٍ أو اعتذار اليوم.

خرجا من الفندق وانطلاقا إلى شوارع باريس سيرًا على الأقدام وبينما يتجولان قال سليم:

- هل أقول لكِ سرًّا؟

سهر وقد غمر الفضول عينيها: أجل، قل لي سرًّا.

سليم: أنتِ أفضل صديقة لي على الإطلاق في هذا العالم.

سهر وقد رُسمت الابتسامة على شفتيها وظهرت أسنانها كاللآلئ من بينهما: هل أخبرك أنا أيضًا سرًّا؟

لمعت عينا سليم وظن أنها قد تخبره بقصتها والسر وراء تلك العقاقير: أتمنى ذلك!

سهر وقد أخذ صوتها يزداد حزنًا: لست كذلك، أتعلم ربما أنا أسوأ شخصٍ على الإطلاق.

سليم: لماذا تبكين الآن؟ أرجوكِ اهدئي..

ثم زلّ لسانه وانزلق بما يعلمه من تفاصيل عن أدوية الاكتئاب ومثبتات المزاج:

- سهر..أنا على علم بماهية تلك الأدوية التي رأيتها في غرفتك،أعرف فيمَا تستخدم ولأي غرضٍ تُتناول، احكي لي ماذا حدث لكِ، ما الذي رمى بكِ على جزر الحزن والخوف المُحاطة بالظلام؟!

سهر -وقد بدأ الهدوء ينتابها-: لا أريد أن أتحدث، أنا على ما يرام، لا أود أن تتغير تلك الصورة التي طالما رسمتها لي في خيالك، لا أتمنى خسارتك مرة أخرى.

سليم: وأنا كذلك، لا أود أن أفقدك مرة أخرى قد فعلت قديمًا ولن أرتكب الخطأ ذاته مرتين، لكنني أخشى أن ينتزعك الموت من بين يدي فجأة، سيفعل في أي وقت إن تركتك أسيرة لتلك الأدوية والعقاقير، هل تدرين ما لها من آثارٍ جانبية؟

سهر: أشياء كثيرة ثم الموت على المدى الطويل، أليس هذا ما تود أن تخبرني إياه؟

سليم: هل تسعين حقًّا للموت؟!

سهر: لا، إن الموت هو الذي يسعى إلينا وهذه حقيقة ثابتة، أنا لا

أسعى له بل أنتظره فقط ربما أتمناه، لا أعلم.

سليم: هل أنتِ سهر؟ تلك الفتاة التي تعرفت عليها كتلميذة مرحة في المدرسة منذ زمنٍ بعيد؟ والله لن أدعك تهربين اليوم حتى تقصي على كل شيء.

سهر: وهل ستصدقني إذًا؟!

سليم: طالما فعلت دومًا فلمَ لا أفعل الآن؟

سهر: إذًا لم يحدث شيء، أعني لم يطرأ على حياتي ما هو بالأمر الجلل حتى ينتهي بي المطاف كإحدى خريجات المصحة النفسية، مريضة نفسية تصاحبها حقيبة ممتلئة بأدوية الاكتئاب ومثبتات المزاج وعقاقير تستخدم في حالات الهلوسة، لكنها التراكمات يا سليم تلك التراكمات التي رُصت فوق بعضها البعض ورُتبت بعناية فائقة حتى جاء اليوم الذي طرق فيه بابي سرٌّ قد أُخفي عني لسنوات عديدة فزادهم حملا حتى انهارت تلك التراكمات فجأة وزلزلت الأرض من تحت قدميّ فانهرت أنا معهم وأخذت أغرق بين كل ما مررت به على الصعيد النفسي حتى خُنقت أنفاسي واختفى النور عن نظري، لقد سقطت في القاع وتلاشت آمال النجاة.

بدأت هذه التراكمات بصدماتي في حقيقة البشر وهذا يحدث مع أكثرنا ليس بالجديد، لكن الأمر معي كان مختلفًا ربما لأنني لم أدخر حبًّا أو جهدًا ورغم ذلك وجدتني وحيدة، ربما لأنني كنت في غاية الهشاشة حتى يمكنني تحمل فكرة أن يتخلى عني الجميع فجأة دون سبب واضح، هل تتذكر في طفولتنا عندما رحلت صديقاتي وانتقلن إلى مدارس أخرى؟ أتتذكر تلك الحالة التي مررت بها وذلك الحزن الضخم الذي انتابني حينها؟ كان ما

شعرت به مماثلًا ولكنه أشد وأقسى وكأن أحدهم جاء بعدسة مكبرة فتتضخم الألم والشعور، على الأرجح أنك لم تسأل نفسك حينها لماذا أنا التي أصابها الحزن بهذا القدر؟ وكذلك منى عبد الله وما سببته لي من أذى وفقدان للثقة في نفسي وفي الآخرين كم أتمنى لو أن ذاكرتك قوية لتسعفك في استرجاع تلك الذكريات.

كان هناك ما لم تكن تعلمه أنت يا سليم.. لقد تركني أبي وأمي وأنا ابنة ست سنوات بحجة السفر للعمل في الخارج، وعدتني أمي حينها بأنها ستُحدثني كل يوم وحثتني أن أكتب لها الرسائل وأوهمتني بأن الرد سيصلني في كل مرة أكتب فيها لهما، أتعلم؟ لم ترد أمي أبدًا على رسائلي تلك ولم تحدثني ولو لمرة واحدة طوال عامين كاملين ثم عادت ذات يوم فجأة لتخبرني بأنها لن تستطيع أن تأخذني معها وأن فترة بُعدهما عني ربما تطول، هنا انقطع كل شيء بيني وبين أهلي، ربما لذلك كنت أُحب أصدقائي، المدرسة، علاقتنا وكل شيء، لقد وجدت فيكم ضالتي وعائلتي ولهذا السبب أيضًا كان للخذلان والفراق ألمًا شديدًا في نفسي، كل تلك الأمور شوهت مني شيئًا فشيئًا، أصابت روحي وتفاصيلها بالفتور والضمور ولكن ليس بقدر السر الذي كشفته لي الأيام خلال عشر السنوات الماضية، أي بعد رحيلك وسفرك إلى فرنسا.

اعتدت الصراخ على أمي دومًا، لقد كنت غاضبة منها إلى أقصى الحدود، لم أغفر لها يومًا رحيلها عني وتركي وحدي، كان صراخي في وجهها ينفس عن النيران التي أشعلتها أمي في قلبي بالاشتراك مع أبي قديمًا، كنت أحملها فوق طاقتها في كثير من الأحيان ورغم ذلك لم تنهني عن ذلك أبدًا،

تمنيت أنه لو يمسها الندم عما فعلت بي، رأيت بأن غضبي نحوها مبررٌ وطبيعي لكن الأمر قد تغير وانقلب رأسًا على عقب حين علمت بالحقيقة، لقد كانت أمي بطلة حقيقية، تحملت الكثير من أجلي وعانت العديد في حياتها، أخبرتني عمتي ذات يوم بذلك السر الذي طالما أخفوه عني حين رأتني أتحدث لأمي في غضب شديد وثورة طائشة وكأنني ثور قد استُفز بشيءٍ أحمر اللون!

قالت لي: " كفاكِ يا سهر.. كفاكِ غضبًا.. كفاكِ تجريحًا لوالدتكِ.. أنتِ لا تعلمين كم تحملت تلك المرأة من ألم حتى تأتي أنتِ إلى دنيانا بل حتى تكبرين، وها أنتِ في سنواتك الأخيرة من دراسة الطب.. لقد وصلتِ إلى تلك المرحلة من حياتك بسببها.. إن أباكِ كان من ذوي العقليات القديمة والمتحجرة، إنه أخي وأعرفه جيدًا كما أعرف نفسي تمامًا بل اسمحي لي بأن أقول لكِ إنه من أصحاب الأفكار البائدة، تبدل الزمن وتطورت الدنيا من حوله وبقي هو متحجرًا بأفكاره ومعتقداته.

كان أخي يتمنى مولودًا ذكرًا، ابنًا يكون له سندًا وعونًا، أنا أعلم جيدًا بأن السند أو العون لا يعتمد على جنس المولود وإنما بأصله وتربيته، فالبنات لسن عائقات، ولا يخذلن أهلهن ولا أعرف لماذا يضعهن أبوكِ ومن على شاكلته في موضع المتهم أو في المرتبة الدنيا من كل شيء! على كل حال لقد خاب أمله عندما وصلتِ أنتِ حتى إنه أراد أن ينتزعك من أحضان أمك ويرمي بكِ في ملجأ للأطفال الرضع، لم ينقذكِ منه سوى هروب والدتك بكِ ليلًا من المستشفى، ظلت هاربة بكِ حتى أتممتِ عامك الأول، ثم عادت وحاولت أن تمتص غضب والدك حتى يتقبلك، وافق أخي لكن

مع وجود شرط لذلك الأمر"

هل لك أن تتخيل يا سليم؟ لقد توسلت أمي لأبي حتى يقبل بي وكأنني ابنة غير شرعية!

كانت أفكاره عتيقة إلى حد التعفن، لن أدعك تستهلك رأسك في التخمين لذلك الشرط الذي أجبر أمي عليه، كان الشرط أن تعمل أمي حتى تنفق على ابنتها فهو لن ينفق أمواله على "فتاة"، منحها فقط المهلة حتى يشتدد بنائي، لذلك اضطرت أمي للسفر معه وتركي لسنوات، أما بشأن عدم تواصلها معي فكان أبي هو الذي يمنعها من ذلك وكأنه يعاقبها على ما أنجبت.

قالت عمتي إنه كان يبرحها ضربًا كلما حاولت الاتصال بي خلسة حتى إنه قد كسر معصمها ذات مرة وهى ترد على إحدى رسائلي، كانت رسالاتي التي طالما تخيلت الفرحة تُرسم على وجوههما حين تصلهما بمنزلة الطعنات السامة التي تُغرس في جسد أمي، كانت تبكي في كل ليلة على فراقها لي، لقد انفصلا أخيرًا منذ عدة سنوات بعد أن تخلت أمي له عن حقوقها المادية.

أخبرتني عمتي بكل تلك الأشياء قبل الانفصال بأشهر قليلة.. أخبرتني أيضًا بأن جديّ لم يكونا على علمٍ بكل ما تعانيه أمي وأنها الوحيدة التي أدركت تلك الحقائق البشعة نظرًا لأنها كانت الصديقة المقربة لأمي قبل أن تتزوج من أخيها وقد بررت أمي لجديّ فترة اختفائها لمدة عام كامل بالسفر مع زوجها فور ولادتي، أما بشأن ما مرت به في الخارج فشاءت الأقدار أن تسكن عمتي في البلدة نفسها التي سافر إليها أخوها وأمي، لذلك كانت هي الشاهد الوحيد على تلك الجريمة مكتملة الأركان.

لقد تغيرت كثيرًا بعدما أصبحت على دراية بالحقيقة، انطفأت شمسي ودُمرت روحي، اعتذرت لأمي عن سوء معاملتي لها لسنوات طويلة ومسني الذنب بنيرانه الملتهبة، كانت تلك النيران أشد حرارة من التي شعرت بها حينما تركني أبي وأمي، لم أخبرها أبدًا أنني قد أدركت السر الذي تخفيه عني، فقد كانت سعيدة بإخفائه قدر سعادتها بعودتها إليّ بعد سنوات عجاف من الغربة.

صدقني يا سليم لم أرَ في عين أمي كلما تطلعت إليها سوى الحزن والألم ولم أرَ السعادة تدق بابها إلا عند انفصالها عن أبي.

إن الضرر النفسي الذي مررت به جعلني دومًا خائفة، ليس خوفًا عاديًا مثلما يشعر الجميع ولكن الخوف الذي يصل إلى أعلى درجات الفزع والهلع، كم تمنيت لو أعرف لماذا أنا خائفة إلى هذا الحد أو من أين يأتي ذلك الخوف الذي لا ينقطع أبدًا، هل أنا مصدره؟ وكيف لي أن أهرب من نفسي إذا؟ لا أعلم ماذا ينبغي عليَّ فعله؟

أصبح القلق الدائم رفيقي والخوف المفزع طريقي، صارت كل الأشياء قادرة على إفزاعي، هل تعلم كم هو قاسٍ ومؤلمٌ أن تخشى المجهول؟ صدقني لا أعرف لماذا تحدث معي كل تلك الأمور، أعاني وحدي ولا أبوح بما يدور في داخلي من حروب ومآسي، أولًا لن يصدقني أحد وإذا فعل فلن يدرك حقيقة شعوري حقًّا، لن يشعر بي إلا من مر بتجربتي نفسها، وثانيًا لم يطرأ على حياتي أمام الجميع ما يدعوهم للتعاطف معي، لماذا أنا التي تأخذ الأمور معها مسارًا مختلفًا مدججًا بالآلام والخيبات والصدمات؟ لماذا يصعب عليّ كل شيء في دنياكم هذه؟

هل أحدثك عن الشعور بالإنكار؟ أراهن أنك لا تعلم عنه شيئًا، الإنكار هو أن تكون موجودًا حقًّا على هذه الأرض لكن الجميع ينكر وجودك، أنت لا تعني لأحدهم شيئًا ولا يهتمون لأمرك، يلفظك الجميع ويرفضك من حولك، تخيل الكون بأكمله لا يُكِنّ لك سوى الرفض، لم ترتكب خطأً واحدًا أو حماقة طائشة، لم تفعل شيئًا على الإطلاق، لكنك على الرغم من ذلك أصبحت في منفى أبدي، لا تنتمي لهذه الحياة ولا يربطك رابط بمن حولك ثم تبدأ الأسئلة تنهال على رأسك وكأن مطرقة نزلت عليها بقوة وعنف فتصرخ لتقول ماذا فعلت لأستحق تلك القسوة وذلك البرود؟ لماذا أنا هنا؟ من أنا؟ ولمَ كتب عليّ النفي؟ هل لديك جواب يا سليم؟

سليم: تتحملين كل ذلك الألم وحدك! دعيني أقول لكِ شيئًا، إننا بشر قد نتفاوت في قدر شعورنا بالأشياء، لقد كنتِ رقيقة إلى الحد الذي لم يستوعب حقيقة البشر من حوله، مثالية وخيالية للحد الذي جعلك ترتطمين بالواقع في أولى تعاملاتك معه، أتعلمين؟ شعرت بالألم النفسي حين تركتنا أمي ذات يوم ورحلت عنا أنا وأبي، لم تقل شيئًا ولم يؤذِها أبي للحد الذي يجعلها ترحل دون كلمة واحدة، كان شجارهما عاديًّا يحدث في أي منزل، حينها شعرت وكأن أحدًا يحاول انتزاع فؤادي من بين أضلعه، كان ذلك الألم قاسيًا موحشًا قادرًا على قتلي ولكنني حاربت وانتصرت عليه، منحني أبي القوة كما فعل شخصٌ آخر دون أن يدري.

سهر: من؟

سليم: أنتِ، لا تتعجبي، كانت صداقتنا أفضل ما في حياتي ورغم أننا لم نكن على وفاق خلال تلك الفترة إلا أنكِ كنتِ سببًا في إمدادي بالقوة

والاطمئنان، إن وجودك حولي في المكان نفسه كان يشعرني بأنني على ما يرام وقادرٌ على تحمل ذلك الألم، ربما لذلك أود مساعدتك، فلن أدعك تنتهين فيما أنتِ فيه.

سهر: قد فات الأوان.. لا أريد شيئًا من هذا العالم ولا أنتظر شيئًا كما أنني لا أسعى لشيء أيضًا، زهدت دنياكم الموحشة، تلك الدنيا المُشبعة بكل ما هو سيئ، اتركني في دنياي لقد اعتدت الأمر وها هي الأيام تمر ولعل هذا كله يمر سريعًا وينتهي كل شيء.

سليم: أنتِ بالفعل في تعداد الأموات، أصبحتِ شبحًا شاهبًا يسير على قدمين، لماذا تُصرين على البقاء في هذا العالم المظلم؟

سهر: لأنني لن أستطيع تحمل الخذلان مرة أخرى لن يقوى قلبي على المرور بخيبات جديدة، نجوت بأعجوبة من السنين الفائتة ورغم ذلك لم تشفَ ندبات تلك الجروح نهائيًا، يا سليم لقد خذلتني الدنيا بمن فيها وما عليها ولا أحد يُشفى من الخذلان، يبقى دائمًا صوت مخيف داخل رأسك يقول لك: غدًا سيخونك هذا وسيتركك ذاك ولكن ذلك الصوت لن يسمعه أحدٌ غيرك ولن يدركه سواك، وأنا قد سئمت سماع ذلك الصوت!

سليم: لا لن أستطيع فعل ما تطلبين، لم يفت الأوان بعد.

سهر: إن حياتك مثالية فلمَ تُصر على إضفاء الحزن واليأس عليها؟!

سليم: ولمَ تُصرين أنتِ على موقفك؟ هل تنتظرين حتى ينتهي بك الأمر كمجذوبة تسير هائمة في الشوارع؟ هل هذا ما تخططين له؟

سهر: أتعرف ماذا أريد الآن؟ لا أريد أن أراك ثانية.

رحلت سهر وتركت "سليم" واقفًا مكانه في إحدى الحدائق العامة في باريس، كانت غاضبة ومتألمة إلى الحد الذي لم تتمالك فيه أعصابها، فذلك الحديث الذي دار بينهما كان بمثابة سائل العطر أو "الكلونيا" الذي انسال على جرح طازج وغائر! كان الألم نفسه الذي لا يستطيع أحد منا تحمله.

عاد سليم إلى منزله وظل جالسًا على كرسي خشبي من النوع الذي يهتز إلى الأمام وإلى الخلف مفكرًا فيما حدث وبينما هو غارقٌ بين الحيرة والتفكير دق جرس الباب، هم بنفسه ليفتح وهنا كانت المفاجأة! رأى ما لم يتوقع رؤيته أبدًا! من الطارق؟ إنها سهر! نعم هي ولكن في حالة يُرثي لها وكأن عينيها قد فاضت من الدمع بحورًا وتحمل بين يديها ذلك الكيس المليء بالأدوية والعقاقير، بدأت دمعاتها تتساقط واحدة تلو الأخرى وقالت:

"أريد أن أتخلص من تلك الأدوية، أ..أ..أريد أن أعيش حياةً عاديَّة، أريد أن أنتزع خوفي وقلقي الدائمين وأرمي بهما في مكان ليس له عنوان، لا أريد تلك الأشياء التي تحجب عني النور، قد ملأت الغيوم سمائي وحاوطني الضباب من كل اتجاه حتى تعثرت رؤيتي وغرست قدماي مكانهما، أتمنى لو أرى العالم منيرًا واضحًا ،لا أطلب إلا الصدق، صدق ما أرى وما أسمع، صدق الناس والأشياء! لكن ما أصعب أن تكتشف أن كل هذا ما هو إلا أكذوبة كبيرة، ما أسوأ أن يكذب الإنسان على أخيه الإنسان، ما أفظع أن تدرك بأن عالمك الذي بنيت ما هو إلا الوهم والسراب.. تمر الأيام والأمور تزداد سوءًا في نظري كل شيء يصبح غريبًا وغير مألوف وكأنني أرى الأشياء لأول مرة، بيتي، أمي، الأماكن التي أعرفها عن ظهر قلب، من هؤلاء؟ أجهلهم ولا آلفهم أبدًا! من أنا؟ لماذا أنا هنا؟ ماذا أفعل؟ يبدو كل شيء مختلفًا وغير

حقيقي، أهز رأسي، أفتح عيني وأغلقهما سريعًا، ألمس أذنيّ وأتأكد أنهما ما زالتا مكانهما، لا شيء يسعفني، كل أعضاء جسدي كما هي مكانها، لم تتحرك أو تذهب لأي مكان قط، ولكنني أنا عاجزة! نعم عاجزة عن الإحساس بكل ما يحيط بي وكأن أوصالي تقطعت بكل شيء! نزلت البئر وأنا مطمئنة للجميع، لم أشك لحظة بأحدهم فخذلوني وقطعوا الحبل عني، فسقطت في الظلام وحدي، ظللت أصرخ لأيام، والأيام قد صارت أشهرًا، والأشهر تحولت إلى سنوات، ناديت بعلو صوتي ولم يُجِبني أحد أبدًا، أرى العيون تنظر إليّ في سخرية وأسمع الضحكات المتشفية بينما أنا هنا أسفل القاع لا أعلم ماذا ينبغي عليّ أن أفعل؟ لقد أصابني الحزن وكاد يفتك بقلبي وعقلي معًا، احتلني الإنكار والاندهاش اللذان يقودان للألم ولا شيء سواه، كل شيء يا سليم يبدو قاتمًا ومفحمًا بالوحاشة والقسوة، لم يعد في مقدوري التحمل.. أريد أن.. أن.. أنجو، أن أترك كل هذا ورائي، أريد أن أرحل وأحلق بعيدًا فوق كل هذا.

أتعرف يا سليم ذلك الإحساس عندما تجلس وسط أناس لا يعرفونك ولا تعرفهم من دول مختلفة، أنت لا تتحدث لغتهم وهم لا يفهمون لغتك؟ ذلك يعني انقطاع التواصل بينكم ومن ثمَّ لا عاطفة، تلك التي تُشكل بلغة الحوار فيكملها العقل من ناحية في حين يُضفي القلب عليها الأمان من الناحية الأخرى، تولد الألفة وذلك إن كان يعني شيئًا فهو يعني الراحة.. الطمأنينة.. الحب.

صدقني لا يوجد أمان دون ألفة ولا توجد ألفة دون حب، سلسلة عنيدة ومترابطة لا تنفك حباتها عن بعض ولكن إن انفرطت حبة واحدة

من تلك السلسلة حل الظلام وطال كل شيء، في كثير من الأحيان أشعر وكأنني على جبل شاهق الارتفاع، أحاول صعوده وبينما أنا في منتصف الطريق إذا بي أدرك بأن القمة باردة إلى الدرجة التي لا يستطيع الإنسان تحملها فَتُميته، وحادة إلى الدرجة التي لا تسمح له بالوقوف أو الجلوس عليها، فإن صعدت إلى أعلى حتمًا سأموت وإن اتخذت قراري بالقفز من موقعي الذي أنا عليه سأسقط وستنكسر عظامي والموت سيكون في انتظاري أيضًا، لذلك أحاول أن ألوح بيدي لمجموعة من الناس لم يتسلقوا الجبل طالبة مساعدتهم ونجدتهم ولكنهم لا يسمعونني أبدًا، فيظنون أنني ألوح فرحًا، يُترجمون صراخي على أنه تهليل.

لقد أدركت الحقيقة يا سليم، أدركتها تمام الإدراك، فهمت كيف للإنسان أن تضيع سنوات عمره كلها فجأة دون معنى أو جدوى، أن يعيش الإنسان غريبًا وسط أهله ومن حوله كما لو أنه حرم من التواصل معهم أو الاقتراب منهم.

أريد أن أنجو بنفسي التي أهلكها الزمن من تلك اللعنة التي أصابتني فحُكم عليّ بأن أعيش في شتات دائم وظلام دامس، يحيط بي الصقيع من جانب والخوف من جانب آخر، ذلك هو الشتات الذي أقصده، شتات الفكر والوجدان، إنه البرد القارص الذي يصيب أعضاء الجسد بالتجمد، أنا حية ولكنني متجمدة، حبيسة داخل قفص من الثلج المقوى، الذي لا يهزم أبدًا!

أنا أرى وأسمع وأعمل وأسافر مع بعثة المنتخب إلى هنا وهناك، لكنني لا أفهم شيئًا، لا شيء يربطني بهذا العالم من حولي، فقدت الشعور بالألفة

تجاه الناس والأشياء، كل شيء يشعرني بالخوف، الخطر يهددني ليلًا ونهارًا، يحول القلق بيني وبين العالم بأكلمه.. هل فعلًا انتهت الأمور عند هذا الحد؟ أصبحت كما تقول أنت شبحًا يسير على أقدام بل مسخًا لإنسان، لا أعرف من أنا؟ من أنت؟ ومن هؤلاء؟ فكلما نظرت في الأعين لا أجد سوى الصقيع الأبدي.

أصبحت الكلمات والأحاديث جوفاء بلا معنى واللمسات باردة دون إحساس، أهرع من مكان إلى آخر بحثًا عن النجاة ولكنني لا أحصل عليها أبدًا، تفسخت الطرق بيني وبين عالمكم هذا ولكنني أريد العودة، أريد استعادة نفسي الضائعة، أتطلع نحو الشعور بالاطمئنان والراحة، أريد أن أغلق عيني لأنام في هدوء وسكينة دون أرق أو خوف، أريد أن تتخلى تلك الأدوية والعقاقير عن رُفقتي، هل ستساعدني يا سليم؟".

بكى سليم بكاءً لم يبكِهِ من قبل وقد احمرت عيناه وصارت كالجمرتين في توهجهما، لم يتمالك السيطرة على نفسه ولم يجد ردًّا أبلغ من العناق عن ذلك الحديث الطويل المليء بالجروح النازفة.

وهنا أدرك كل من سهر وسليم بأن علاقتهما باتت تتعدى حدود الصداقة، لقد أغرم بعضهما ببعضٍ قديمًا وها هما يفعلان الآن، فلم يستطع سليم أن يحب إحداهن، ولم تفتح سهر قلبها لأي طارق إن لم يكن سليما.

لم يتواصل كلاهما بعد تلك الليلة لمدة يومين كاملين، لم تكف رأس سليم عن التفكير فكيف له أن يساعدها ويعيد لها الحياة مرة أخرى؟ أما سهر فلم تكن ببعيدة عن الوضع ذاته ولربما طرح عليها عقلها البائس

بعض الأسئلة.

بدأت البطولة وباتت سهر أكثر انشغالًا، أما سليم فقد قرر أن يقطع الصمت الذي خيم عليهما طيلة يومين كاملين، وفي ليلة باردة من ليالي باريس الشتوية ارتدى سليم معطفه الأسود وذهب إلى الفندق كي يتحدث إلى سهر، حقيقة لم يكن يدري في أي موضوع عليه أن يتحدث فلم يكن يعنيه سوى أن يكسر ذلك الصمت.

و حين وصل كانت المفاجأة، تركت سهر الفندق ولكن إلى أين؟ في هذه اللحظة كاد أن يجن عقل سليم، انهال على موظف الاستعلامات في الفندق بالأسئلة إلى أين ذهبت؟ ألم تترك رسالة أو عنوان؟ هل حزمت أمتعتها وعادت إلى مصر؟ ألم تقل شيئًا قبل رحليها؟ متى غادرت؟

ولم يكن الموظف المسكين يملك أية إجابات على أسئلة سليم، فخرج تاركًا الفندق واستقل سيارته وظل ينتقل بين شوارع باريس شارعًا تلو الآخر بحثًا عنها لكنه لم يجدها أبدًا، قضى تلك الليلة في حزن وألم حتى عاد إلى منزله عند بزوغ فجر اليوم التالي، حاول جاهدًا أن يغفو وينام لكنه لم يستطع، فكيف ينام والنوم سمة الأبرياء؟ وهو لا يعد نفسه بريئًا بعد الآن ويشعر بالذنب ظانًّا أن سهر قد رحلت بسببه!

اتصل سليم بها مرارًا وتكرارًا حتى سئم ذلك الصوت المسجل والذي يفيد أن الهاتف قد يكون مغلقًا أو مرفوعًا من الخدمة وإذا بالباب يدق، أسرع سليم نحوه معتقدًا أنها قد تكون سهر مرة أخرى، لكنه لم يجدها ولم يجد شخصًا آخر بل فقط جواب!

التقطه سليم من الأرض وعلامات الاستفهام تعتلي وجهه، ثم بدأ يفتحه تدريجيًّا في مشهد يعيد المرء إلى زمن بعيد بل يأخذ به ويرميه في عصر قديم حين كانت النساء ترتدي مشدات ضيقة صنعت من الدانتِل مع تنورة أو فستان مُطرز بزخارف باهرة تعكس شخصياتهن على حين كانت أزياء الرجال تتمحور حول الحُلة ذات الجاكيت الطويل والأوشحة الملونة أما السراويل فكان شكلها يختلف حسب الأذواق.

بدأت عينا سليم تقع على الكلمات الأولى وأخذ يقرؤها في نبرات مرتفعة بعض الشيء:

" عزيزي سليم..

أكتب لك الآن كما فعلت دومًا طيلة السنوات الماضية، لكن هذه المرة تختلف كثيرًا عن سابقيها، هذه المرة ستقرأ أنت هذه الكلمات.

قد تكون ذهبت إلى الفندق كي تلتقي بي وبالطبع لم تجدني، أعلم أنك قد تكون منزعجًا ولا شك أنك تسأل أيضًا عن سبب رحيلي بهذه الطريقة فجأة ودون ترك رسالة أو عنوان، أرجوك لا تغضب، رحلت حتى أحظى ببعض الوقت لنفسي كي أكون وحدي وحتى لا أراك ،و لا أقصد بذلك أنني لا أرغب في رؤيتك بالطبع أنا لست كذلك لكن عقلي البائس عاجز عن التفكير، مشتت وتائه، فضلت أن أنتقل إلى مكان آخر لا تعرفه أنت ولا المدرب وكذلك زملائي في البعثة، ورغم ذلك لا أستطيع ألا أكتب إليك، إن نفسي تنازعني إليك وتحرضني على الكتابة مثلما اعتدت أن أفعل، ربما تكون الطريقة بدائية ولا تتناسب مع عصر سريع كالذي نحن فيه الآن، لكنني أكون أكثر جُرأة على الورق بل أكون نفسي أكثر من أي وقت، تعتلي

وجهي الآن ابتسامة صادقة وأنا أسطر لك تلك الكلمات لأنني على يقينٍ بأنك ستقرؤها هذه المرة، تبينت لي رغبتك في مساعدتي من قبل، حقًّا؟ هل ستتمكن من إنقاذي؟! أحيانًا يكون لدي أسئلة عديدة بلا أجوبة تنضح في رأسي ولا أعلم من أين تأتيني وكأنها كانت مستغرقة نومًا في العالم السفلي، فما الذي يجعلها تعاود وتحيا إلى عالم النهار؟ هل سيكون لديك إجابات عن تلك الأسئلة التي طالما أرهقتني في البحث لها عن إجابات؟ هل ستستطيع أن تقدم لي الحقيقة أو ترشدني نحو طريقها حين يجرد كل شيء أمامي من لمعانه وتوهجه فيحل الظلام من كل ناحية وتتعثر رؤيتي؟ إن عالمي محفوف بالمخاطر قد لا تتمكن من ذلك، وعلى الرغم من إنني في حاجة لمساعدتك إلا أنني لا أريدك أن تتورط في ذلك العالم التعيس المليء بالحزن، لا أود أن تغرس قدميك في أراضي اليأس، اقرأ رسالتي بتمعن، لا تتسرع ولا تتخذ قرارًا قد تندم عليه فيما بعد، أعِد قراءتها مرارًا وتكرارًا وإن توصلت لإجابات حينها سأكون في انتظارك أمام برج إيفيل، السادسة مساءً من يوم الأحد، وإن لم تتوصل سأنتظرك هنا دائمًا على الورق.

وداعًا أو إلى لقاءٍ..

سهر"

ظل سليم يحدث نفسه وهو يطوف أنحاء شقته: إنها بخير.. تحظى بالراحة أو ينتابها شيء من السعادة فذلك الذي يهم ولا شيء بعد ذلك، كنت قلقًا إلى حد الجنون، في بادئ الأمر طننت بأنها قد تكون عادت إلى مِصر ورحلت نهائيًّا، فكرت بأنها قد تكون تركتني هنا وراءها، أصابني الفزع والخوف.

طوى سليم الرسالة واتجه نحو النتيجة المُعلقة في غرفته كي يتحقق من يومه الذي يقرأ فيه الرسالة، إنه يوم الخميس أي إنه يمتلك نحو يومين للتفكير فيما قرأ ثم عاد يحدث نفسه مرة أخرى قائلًا: قل لي ماذا ستفعل الآن؟ كيف ستقوم بحل تلك القضية؟ لم تستعصِ عليك قضية قط فماذا بك الآن؟ هل تستسلم؟ هل لديك ما تقدمه لسهر؟ وكيف لك أن تعثر على إجابات لأسئلتها وأنت عاجز عن إيجاد إجابات لنفسك؟ آه..ماذا على أن أفعل؟ أحيانًا ينتابني إحساس غريب بأن كلينا في غرفة واحدة لها بابان متقابلان، وكل منا يقف عند جانب، يقبض على مقبض الباب من ناحيته وما إن ينطق أحدنا حتى يكون الآخر قد أصبح خارج الغرفة حينها لا يكون على الأول سوى الصمت، فالآخر قد أغلق الباب خلفه، لن يسمع ولن تصبح رؤيته ممكنة.

إن الباب حتمًا سينفتح، أشعر بذلك بل ربما إنني أتطلع نحوه أملًا أن يهتز مقبض الباب وأراه يتحرك ببطء ثم يدخل النور شيئًا فشيئًا ويكتمل بفتحه كاملًا، ربما لأنها غرفة قد يتسنّى لأي منا فتح بابها في أي وقت أو ربما لأن الأول يرتبط بالثاني ويشبهه إلى حد كبير فيكونان خارج البابين في الوقت نفسه في حين تُترك الغرفة خالية! لا أعلم ولكن صفق الأبواب لأمرٌ بالغ الفظاعة ولا أريد تكراره مرة أخرى.

ماذا عليَّ أن أفعل؟ هل أصبحت يائسًا قبل أن أساعدها؟!

أما سهر فكانت على الضفة الأخرى، يساورها القلق ويداهمها الخوف، إن القلق لعنة، يفسد عليها أبسط الأشياء، يحول الحياة إلى مكان موحش لكنها حاولت طرده هذه المرة.

*

مر اليومان سريعًا.. وجاء يوم الأحد، الميعاد المنتظر.

لم تكن سهر تتوقع الكثير من سليم، كان هناك صوت بداخلها يحذرها بأنه لن يأتي ولن يحصل على إجابات، فدومًا ما تكون هي الخيار الذي يتنازل عنه الجميع أو تلك الفكرة التي تلمع في الأعين وتخطر على البال ثم تُنسى كالحل المؤقت الذي لا يُلتفت له يومًا والقرار الذي لا يُتخذ أبدًا؛ لذلك باتت تهيئ نفسها للعودة إلى مصر فلم يتبقَّ على انتهاء البطولة سوى يومٍ واحدٍ.

راودها الأمل في الأيام الماضية وربما تكون قد لمست طريقًا للسعادة أو ممرًا يُقضِي بها خارج بئر التعاسة هذا الذي انزلقت فيه منذ سنوات عديدة، فحين يساور الأمل المرء وهو على قمة جبل من اليأس، يكون التخلي عن ذلك الشعاع البسيط أمرًا بالغ الصعوبة والمشقة، إن الأمل لمجنون ومتقلب قد يخيب ظنك في أي لحظة ولكنه إلى أن يفعلها يظل أملًا وفرصة.

بدأت سهر الاستعداد للذهاب إلى برج إيفيل في مشهد يختلف كل الاختلاف عن المرة الأولى التي ذهبت

فيها لتقابل "سليم" في مقهى بشارع الشانزليزيه، لم تستغرق وقتًا ولم تدركها الحيرة في أثناء اختيار الملابس بين هذا وذاك، كذلك لم يكن لديها شيءٌ من الطاقة أو الشغف مثل المرة الأولى، ارتدت بنطالًا أسود اللون مع بلوزة زرقاء واتجهت مباشرة نحو برج إيفيل.

وصلت سهر واتخذت من دكة خشبية أمام برج إيفيل مقعدًا لها، كان متلألئًا وسط أضواء باريس الساحرة، إنه لأروع المشاهد في باريس. كذلك كان توترها حاضرًا معها يجلس إلى جوارها، أخذت تنظر في ساعة يدها تارة ثم تُدير عينيها إلى البرج تارة أخرى.

و فجأة وجدت "سليم" جالسًا بجوارها في صمت فقالت له مُندهشة:

- سليم؟! لم أكن أتوقع مجيئك، كيف حالك؟

سليم: لم أستطع فعلها مرة أخرى، لم أقوَ على منع نفسي من المجيء، لا أستطيع الهرب منكِ، إنه شيء أشبه بالسحر، إن وجودك هنا مؤكد أكثر من وجودي، إنني أكون حيث تكونين أنتِ، وجودك يعني وجودي بل أكثر من ذلك، إنكِ لا تعلمين شيئًا.

في تلك الليلة حين ذهبت إلى الفندق كي أراكِ ولم أجدك كنت قادمًا لأتحدث معكِ بشأن.. بشأنك أنتِ، كنت سأقول لن أتركك أبدًا، لن أسمح للاكتئاب باعتبارك ضحيته، لن أدعه يفترسك ولن تعيشي كشبح بعد الآن! وبغض النظر عن هذا كله، إنه من الصعب أن يراكِ المرء في جوف هذا الفرن مرتفع الحرارة تحترقين وحدك ! أنا لا أستطيع! لطالما أحببتك دومًا في كل حالاتك لكنني ألمس شيئًا من الاختلاف هذه المرة، تنطفئين ببطء أو ربما قد انطفأتِ بالفعل! أتمنى ألا تزعجك صراحتي إنكِ تثقلين على نفسك في جو مفعم بالكآبة والبؤس، ربما لأنكِ عاجزة عن تحرير نفسك من قيودهما ولكن قد يمكنني أنا مساعدتك، ربما في مقدوري ذلك، فهل تسمحين لي؟

سهر: كلما حاولت الوثوق بك وتصديقك راودني الخوف المفزع مرة أخرى.

سليم: لذلك أنا هنا، حتى تتخلصي من خوفك وتودعين قلقك هذا، يا سهر أحيانًا يحتاج المرء أن يرى نفسه بعين الآخر، أن تُعاد له الثقة في ذاته ومن ثمَّ في من حوله، قد نحتاج إلى شخص آخر يساعدنا في العثور على تلك الأجزاء الناقصة من اللعبة أو أن يعيد الألوان الهاربة إلى مكانها في اللوحة.

ما زلت على يقين بأنني قادرٌ على انتشالك من تلك الغابة التي تتكاثف أشجارها بالاكتئاب والحزن وكذلك بأدوية الأعصاب والمهدئات، صدقيني لا أعلم من أين يأتيني ذلك الشعور ولكنني كلما قرأت رسالتك قوي وصار مؤكدًا أكثر من أي وقت.

آه.. أخيرًا لا أصدق ما تراه عيناي! لقد فعلتها! لقد نجحت! ها أنا أقف على قمة الجبل عند نهايته! ها أنا بين أحضان الشمس والهواء النقي! لم ينتهِ أمري بين السماء والأرض.

أجل أنا حرة مرة أخرى، لقد تخلصت من مآزقي وتحررت من أزمتي، ها أنا أقف على أرض ثابتة ليس بها تعرجات، أما هناك فذاك هو الطريق المؤدي نحو معسكرنا الذي نمكث فيه، لم أعد عالقة بين الحياة والموت، لقد نجوت!

لكن ماذا عن سهر؟!

لقد نجت هي الأخرى، نعم لقد عانت الكثير وتكبدت من الآلام والأوجاع ما يكفيها ويزيد عن حاجتها، شوهت نفسها إثر ما مرت به، طُمست بهجتها وسكنها الاكتئاب المفعم بالحزن لسنوات طويلة، حاوطها القلق من كل جانب لكنها على الرغم من ذلك تمكنت من النجاة، أجل لقد فعلت.

ساعدني سليم كثيرًا وأخذ بيدي نحو عالم آخر جديد حين مكثت في فرنسا بعد انتهاء البطولة والتي توج بها منتخبنا الوطني، دلني سليم على حلقات للدعم النفسي أو الجروب ثيربي، خضنا التجربة معًا بمراحلها المختلفة، كان سليم يرافقني إلى تلك الحلقات، وهناك أدركت أنني لست وحدي كما ظننت، فيوجد الكثيرون غيري ممن يعانون الآلام النفسية، هناك من يمرون بتجارب مماثلة بل أشد قسوة عني.

هناك تعلمت أن القوة تكمن بداخلنا نحن فقط، فنحن القادرون على إنقاذ أنفسنا من أي شيء لكن فقط يتم ذلك حين نتعرف على

أرواحنا بشكل سليم، لقد تعرفت على ذاتي من جديد وتقبلت ذلك الألم كي أتمكن من التعامل معه ومن ثمَّ التخلص منه نهائيًّا، تصالحت مع الماضي حتى لا أتيح له الفرصة كي يبتز حاضري ويدمر مستقبلي، سامحت والدي لأنه رفضني ولم يتقبلني وتجاوزت عما فعله بأمي بل إنني أحاول الاطمئنان عليه من فترة لأخرى، كما اكتشف هو أيضًا بأنني لست بهذا السوء الذي كان يعتقده على الأقل إنني أساعده في علاج آلام العظام التي تصيبه بسبب تقدم السن.

لقد تحررت من كل قيود الألم والاكتئاب التي طالما كبلتني وصفدت يدي، ودعت الخوف المفزع والقلق المبهم، أما الأرق فلم يعد يدق بابي، وتلك الأحاسيس المتناقضة لم تعد تساورني بعد الآن، بت أرى الأشياء أكثر صدقًا ونورًا، عادت روحي حرة ومبتهجة حين رفعت يدي عن الماضي بكل ما فيه من آلام وأوجاع، غدر وخذلان، خوف وقلق، اكتئاب وحزن، وعاهدت نفسي بألا أسمح لهم بإفساد حياتي مرة أخرى.

أما سليم..ما هذا؟ لحظة واحدة! كيف له ألا يأتي ليبحث عني؟ ومن هؤلاء الذين يلوحون لي من على بعد؟

سليم بصوتٍ عالٍ: هل من أحد هناك؟ سهر.. سهر هل تسمعينني؟

أنا : أجل.. لقد أتيتَ بالفعل.. أنا هنا.. كنت عالقة.. نجوت.. أنا هنا.

سليم وقد وصل أخيرًا: هل أنتِ على ما يرام؟ أين ذهبتِ فجأة؟ تركتك جالسة عند حافة الجبل تلتقطين بعض الصور للطبيعة من حولنا ثم اختفيتِ فجأة! ماذا حل بكِ؟ لقد قطعنا المكان بحثًا ولم نجدك!

أنا: لقد كنت عالقة على الجانب الآخر من ذلك الجبل، أحاول الصعود وحدي بأقل الإمكانيات، كان الأمر شاقًّا ولكنني استعنت على نفسي بقصتنا، كنت أرويها على تلك الكاميرا وأنا أوثق المأزق الذي وقعت فيه كي لا تغفو عيناي أو تنفلت قدماي وكذلك حتى لا تهبط عزيمتي وأفقد قدرتي على البقاء.. لحظة واحدة، سليم انظر تجاه الكاميرا وقل شيئًا فما زالت تُسجل.

سليم: أين؟ آه هنا.. ماذا عليّ أن أقول؟ لقد وقعت في غرام أكثر النساء تهورًا على وجه الأرض، تفعلين أشياء مجنونة ولكنني لم أتوقف يومًا عن حبك أو الفخر بكِ، إنكِ نادرة وأنا محظوظ لأنني قد التحقت بمدرستنا منذ زمن بعيد.

أنا: ما زلت تمتلك ذلك الأسلوب الدرامي.. لقد أوشك الشحن الخاص بالكاميرا على النفاد وهناك ما تبقى كي أوثقه، ليس الآن أيتها الكاميرا، أتوسل إليكِ ابقي حية حتى نعود إلى باريس!

انتهت رحلتنا.. ها أنا أمام المنزل، الكاميرا جاهزة أيضًا لندق الجرس إذًا..

- ماماااااا...ماااما

أنا: يوسف، افتقدناك كثيرًا، ماذا فعلت في غيابنا؟ كيف حال ألعاب ابني؟ هل استمتعتم من دوني؟ وأين جدتك لم أرَها حتى الآن؟

يوسف: في ال..دا..خل.

أنا: أمي، شكرًا لكِ، شكرًا لأنكِ لم تتخلَّيْ عني أبدًا، لأنكِ كافحتِ من أجل بقائي، شكرًا لتحملك نوبات غضبي وصراخي، شكرًا لاعتنائك بي

وبابني، إنكِ أفضل أمٍّ على الإطلاق، هل تقولين شيئًا للكاميرا؟

أمي: أُحبك كثيرًا، ولتجعلي كاميرتك هذه توثق عناق الأم لابنتها.

أنا: بالطبع..هيا بنا!

سليم: ما رأيك أن تنهي ذلك التسجيل ببعض الكلمات منكِ، أعتقد أنه سيبدو مذهلًا خاصة وأنك قد حكيتِ الكثير.

أنا: فكرة مذهلةّ! لنبدأ؟ ها أنا سهر.. كانت هذه قصتي وتلك هي رحلتي، أما عن نهايتها فقد تنازلت ووافقت بعد إلحاح شديد من سليم على الزواج به كما أصبحت لي عيادة خاصة هنا في باريس، ما أود قوله أنه في كثير من الأحيان قد نلجأ للحلول الصعبة لحل أزماتنا ومشاكلنا في حين أن أبسط الأمور تكون هي الحل الذي لا نراه، نعم لم تجدِ معي مضادات الاكتئاب والعقاقير المهدئة نفعًا ولكن الدعم النفسي والحب والصداقة هو ما ساعدني على الخروج مما كنت فيه، في الواقع إن الدعم النفسي والحب اللذين قد نحصل عليهما ممن حولنا من أهل وأصدقاء قادران على إصلاح الأمور وإضفاء لمسات من النور مرة أخرى لكن الأهم من ذلك هو أن نتقبل أنفسنا بما هي عليه وبما نمر به من ألم حينها تسنح لنا الفرصة لترميم الجروح وتشققات الروح، لقد تهيأت لي الفرصة كي أصافح دنياي مرة أخرى ولذلك أود أن أقول لكِ شيئًا عزيزتي الحياة.. أعلم أننا لم نكن على وفاق أو تواصل منذ فترة بعيدة لذلك أحببت فقط قول مرحبًا، هل تقبلين صداقتي من جديد؟

تمّت

الشقة رقم (١٣)

عمارة قديمة ذات طوابق عديدة، واحدة من أولئك الذين طمس الغبار والتراب ملامحهم في وسط المدينة يجلس خارجها على دكة خشبية حارس عجوز تشعر وكأنه خرج للتو من فيلم أبيض وأسود ويمسك بيده كوبًا يملأ نصفه الفراغ والنصف الآخر يملأه سائل غامق اللون يبدو أنه شاي صعيدي ويستند بالأخرى على نبوت قد طُرز ببعض المسامير مثل أولئك الذين تراهم في الأفلام المقتبسة عن روايات العبقري نجيب محفوظ.

- السلام عليكم يا حاج.. هل هذه العمارة رقم ٢٥؟
- وعليكم السلام يا ولدي، نعم هي، عن من تسأل؟
- كثر خيرك يا حاج.

مصعد قديم ومتهالك، هذا لا يوحي بالخير، سأستخدم الدرج، فالسلالم مهما طالت بالتأكيد ستكون آمنَ من هذا المصعد. بخطى مترددة، أدخل الشقة رقم (١٣).

- دورك رقم ٩ يا أستاذ، والفيزيتا ٢٠٠ جنيه، تفضل بالانتظار هناك بجانب ذلك الرجل الذي يقرأ الجريدة.

أريكة بنية اللون وبعض من كراسي الانتظار وطاولة قصيرة وضعت عليها بعض الصحف والمجلات التي لا تحتوي سوى على النميمة والأخبار المعتادة، على كل حال هناك عدد لا بأس به من الناس، يبدو أن للطبيب سمعة جيدة.

- رقم ٩.. رقم ٩، يا أستاذ، تفضل بالدخول، الدكتور في انتظارك.

دكتور رفعت المناويلي: أهلًا وسهلًا، يبدو عليك التوتر وهناك علامة تعجب قد رُسمت على وجهك، ها ها ها ها هل هذه هي المرة الأولى لك؟

أنا: نعم يا سيدي إنها الأولى.

دكتور رفعت المناويلي: هل تشكو من أعراض محددة؟

أنا: لا يا دكتور، أنا هنا لأنني لا أعرف شيئًا أو ربما لأنني أدركت الحقيقة كاملة.

دكتور رفعت المناويلي: إذن، فلنبدأ بالحديث، قل لي من أنت؟

"اسم.. اسمي عزيز توفيق، من مواليد المحروسة، أبلغ من العمر ٣١ عامًا، أسكن مع والدتي في شقة متوسطة الحال في حي من أحياء مصر الجديدة، لكي أكون صريحًا جئت إلى هنا طلبًا للمساعدة الطبية بعد إلحاح شديد من والدتي.. كان كل شيء على ما يرام وفجأة حل الظلام لا أعلم من أين جاء ولا أدري ما أسبابه ولكنني لم أعد متزنًا أو مرتاحًا بعدما جاء.

دعني أخبرك، بدأ الأمر منذ ثلاث، لا خمس سنوات.. لا لا، بل منذ عامين ونصف حين شعرت لأول مرة بحزن مقيم لا يتركني أبدًا ولا أعلم سببه، فكل شيء على ما يرام، اعتقدت بأنه شيء طارئ وسيختفي في غضون يوم أو بضعة أيام، ولكنه على عكس توقعي الساذج، كان يزداد دون أن أدري أو أشعر".

- الدكتور رفعت: هل كنت تعاني أية اضطرابات قبل تلك الفترة الزمنية؟

"نعم يا دكتور، أنا دائم الخوف من أشياء عديدة ولكنني أرى أنها أشياء عادية الجميع يهابها، على سبيل المثال هناك العديد من الناس يخافون الموت والظلام والقوارض وأحيانا الحشرات، إنني أرى الموضوع في غاية البساطة إلى حد ما، فجميعنا نخاف وإن لم نفعل فذلك هو الذي يخيف!

كذلك أعاني الأرق منذ أكثر من عشر سنوات ودائمًا ما أرى الكوابيس في منامي، اسمح لي أن أكون أكثر وضوحًا، أنا لا أرى سوى الكوابيس ونادرًا ما ندر ما أرى حلمًا جميلًا أو على الأقل حلمًا لا يجعلني أستيقظ مفزوعًا مذعورًا، بدا لي الأمر مزعجًا في أوله ولكنني تأقلمت على الوضع حتى صرت أقل انزعاجًا من بدايته، ونتيجة طبيعية لتلك الكوابيس، يصيبني التوتر في كثير من الأحيان، كلما استرجعت تفاصيل الكابوس أو فكرت في إمكانية حدوثه".

- دكتور رفعت المناويلي: أتعلم يا عزيز، هذا أمر شاق للغاية، لو كنت في مثل موقعك لأصابني الهوس على الفور.

- و ها هو قد أصابني يا دكتور وإلا لماذا جئت إليك؟!

- دكتور رفعت: لا يا عزيز، لا تتفوه بمثل تلك الحماقات، هذه الكلمات لا يقولها سوى الجاهل أو غير المتعلم، إن الطبيب النفسي لا يعالج الجنون أو الهوس ولكنه فقط يساعد المريض على إيجاد بعض الإجابات لأسئلته وربما يحل معه بعض الألغاز إذا استعصت عليه، إنه يساعد المرء في العثور على تلك القطع أو الأجزاء الناقصة من البازل الخاص به.

- دعك من هذا السخف يا دكتور، أنت تعلم جيدًا تلك النظرة التي يرمقها المجتمع للمرضى من حولهم، خاصة إن كان الأمر يتعلق بالعقل، وكأننا فجأة تحولنا إلى كائنات فضائية ذوي رؤوس زجاجية شفافة!، الجميع ينظر إليهم في فزع وريبة، على كل حال هذه النظرات لا تثير غضبي ولا أهتم بها على الإطلاق. اسمي عزيز توفيق من مواليد المحروسة وأبلغ من العمر ٣١ عام عامًا.

أتسمح لي بإشعال سيجارة يا دكتور؟ أنا لست مدخنًا شرهًا ولكنني أشتاق إليها من وقت لآخر، ربما تخفف عني بعضًا من التوتر الذي أشعر به الآن، فليس من السهل وصف إنسان لنفسه بأنه مريض اكتئاب.

- دكتور رفعت المناويلي: يا رجل! مرة واحدة !، ما هذا الذي تقوله، اكتئاب؟!

- أي، نعم، أعلم جيدًا بأن البعض قد سفهه مؤخرًا من حجم ذلك المصطلح، الجميع أصبح يطلقها على أي شيء، فترى فلانا يكتب على مواقع التواصل الاجتماعي أنه مصاب بالاكتئاب، وتجد فُلانة تنشر صورة كعكة تنهمر منها الشيكولاتة السائلة وكأنها حمم بركانية ثم تضفي عليها تعليقًا بعنوان: "الحل الأمثل لعلاج الاكتئاب"، أي اكتئاب هذا الذي يُعالج عن طريق كعكة؟، كأن الاكتئاب قد تحول إلى دور برد، فكلما شعر أحدهم بألمٍ في الرأس أو فتور في همته أو حزن عابر، أعلن أنه أصيب بالاكتئاب، إنهم حقًّا يقولون ما يجهلون، لم يرَ أحد من هؤلاء الناس الحقيقة الكاملة ولكنني فعلت يا دكتور.

* تن..تن..تن..تن

- دكتور رفعت المناويلي: دق الجرس وانتهت جلستنا الأولى يا عزيز، دعني أحدد لك موعد الجلسة الثانية، هل يناسبك مساء يوم الثلاثاء، اممم تحديدًا السادسة مساءً؟

- لا بأس، يبدو ذلك مناسبًا، سأكون هنا في الموعد بإذن الله.

خرجت من العيادة وأنا مشوش الفكر بين أشياء عدة، أبرزها هل فعلًا سآتي إلى هنا في الموعد القادم؟ أم أنني خرجت ولن أعود أبدًا.

هدأت من روعي وقُلت في نفسي، إن الإجابة عن هذا السؤال سابقة لأوانها، موعد الجلسة القادمة بعد أسبوع، أما الآن فسأذهب لأتناول الأيس كريم من ذلك المحل "بينجو" المفضل لدي.

عُدت إلى المنزل، فوجدت أمي جالسة أمام التلفاز، تشاهد مسلسلاً قديمًا، قد جلبت لها أيضًا بعضًا من أنواع الأيس كريم التي تحبها. سألتني في ترقب وشغف:

- ها..ماذا فعلت؟ هل وجدته طبيبًا بارعًا ام أنه نصاب يرتدي عباءة الطب؟".

أجبت أمي في اقتضاب مختصر: "الحمد لله".

أعلم أن أمي تريد سماع أدق التفاصيل ولكن طاقتي لذلك اليوم قد نفدت عن آخرها، ثم عرضت عليّ أمي أن تأتيني بشيء من الطعام ولكنني رفضت ورجوتها أن تطفئ الأنوار، إنني مُجهد ولا أريد أن أفكر في أي موضوع، فقط أريد أن أسحب ذلك الغطاء على وجهي وأغفو طويلًا في النوم.

مرت الأيام سريعًا ووجدتني صباح يوم الثلاثاء أسأل نفسي سؤلًا واحدا: هل تلك الخطوة مجدية حقًّا؟، ظللت أفكر طيلة ساعتين كاملتين، لم أصل إلى إجابة واضحة ولكنني توصلت إلى حل مؤقت وهو إن لم تكن تلك التجربة ناجحة فإنها على الأقل لن تضر، فماذا يكون أسوأ من ذلك؟ لا شيء، إذًا سأستعد للذهاب في الموعد.

وصلت قبل ميعادي بحوالي عشر دقائق، دفعت ثمن الكشف أو الفيزيتا بلغة ذلك التُمرجي الجالس على المكتب والذي ابتسم لي أثناء تناوله المبلغ وقال:

-" يبدو أننا سنراك كثيرًا يا أستاذ".

ذلك الرجل يزيد من حدة غضبي، شعرت منذ أن وطئت قدماي تلك العيادة بأنه كثير الاستخفاف بالمرضى، على كل حال لن أكترث له، هذا ليس من شأني.

- دكتور رفعت المناويلي: مرحبًا يا عزيز، كيف حالك اليوم؟

- أهلًا دكتور.. الحمد لله.

- دكتور رفعت: تفضل بالجلوس، أي مكان تريد أن تأخذ مقعدك اليوم؟

- أتسمح لي بالجلوس هناك على تلك الأريكة الزرقاء؟ تبدو لي مريحة.

- دكتور رفعت المناويلي: بالطبع، أخبرتني الجلسة السابقة بجملة لم تجعل النوم يزورني طيلة ليلة كاملة، ظللت أفكر في مغزاها ولم أصل إلى

شيء، فهل توضحها لي؟

- أعلم عن أي جملة تتحدث، أخبرتك بأنني رأيت الحقيقة الكاملة ولم يفعل أي من أولئك الذين يدعون الاكتئاب، حين تصاب همتهم بالفتور ويمر قلبهم بحزن عابر، أليست تلك الكلمات هي التي تؤرقك؟

- دكتور رفعت: نعم، بالضبط مثلما قُلت.

- قبل شهور قليلة زاد حدة ما أمر به، أتذكر ذلك اليوم جيدًا، يوم أن تغير كل شيء وانقلبت الدنيا أمام عيني رأسًا على عقب.. دعني أحدثك أولًا يا دكتور عن عدة أشياء، كنت أعمل في شركة ترجمة تختص بترجمة العقود والمواثيق للشركات، وقد عملت بهذا المكان منذ أن تخرجت من كلية اللغات والترجمة، وكذلك عمل معي في نفس الشركة بعض من زملائي في الجامعة وبطبيعة الحال، توطدت العلاقات بيننا وأصبحوا بمثابة عائلتي الثانية، أنزلتهم منزلة الإخوة، لا أخفيك يا دكتور، كنت دومًا ذلك الشخص الذي يحلم بالصداقة الحقيقية، أحد هؤلاء السُذج الذين يؤمنون بقيم الصداقة، لطالما حلمت بأصدقاء يحبونني دون أغراض أو مصالح، من يكونون لي سندا وملجأ حين تدير لي الدنيا ظهرها، نصنع الفرح والمرح ونتشاركه سويًا، أن نخفف من وطأة الحزن وشدته معًا، هل أنا مخطئ في ذلك يا دكتور؟، على كل حال لم يكن لي يومًا أصدقاء مثلما تخيلت، لم أحظَ بأصدقاء في المدرسة نظرًا لعدم استقرارنا في محافظة واحدة، فكنت دائم التنقل بين المدارس ولم تتهيأ لي الفرصة لتكوين صداقات، أما الجامعة فلم يكن لي فيها سوى (علي)، ولسوء الحظ انتقل صديقي الوحيد (علي) للعيش مع أسرته في إحدى دول الخليج، رحل عن جامعتنا في السنة

الثانية من الدراسة، تركني في منتصف الطريق وحدي، وأنا لست من ذلك النوع الذي يسهل عليه تكوين الصداقات والتعرف على الغير سريعًا، ونتيجة لذلك قضيت آخر عامين من دراستي الجامعية وحيدًا، نعم كانت لدي بعض المعارف من الزملاء ولكن ليسوا أصدقاء بالمفهوم المتعارف عليه.

- دكتور رفعت المناويلي: وربما وجدت أن الفرصة قد سنحت لك في العمل لتحقيق ما حلمت به حين رأيت بعضًا من زملاء الجامعة قد التحقوا بالشركة نفسها التي تعمل بها، أليس كذلك؟

- نعم، شعرت بأن هذا هو خير عوض عن الأيام والأعوام السابقة، لم أدخر حبًّا أو مساعدة أو حتى مالا، أحببتهم من كل قلبي، لكنهم لم يفعلوا أبدًا.

في أحد الأيام جاء لي "فطين"، وهو أحد الأصدقاء أو عذرًا لا أود الزج باسمه تحت هذا الاسم النبيل، طلب مني ترجمة بعض العقود بدلًا عنه بحجه مغادرته للمكتب في وقت مبكر من ذلك اليوم، حيث إنه ذاهب بوالدته المريضة إلى الطبيب، قبلت على الفور وأنا سعيد، إنني أسدي خدمة لصديق، هذا عمل في غاية النبل، تمنيت لأمه الشفاء العاجل وأن ينجيها الله من كل شر ووعدته بإنجاز المهام التي طلبها مني.

بدأت أخطو بالترجمة في الأوراق الأولى من الملف الذي تركه لي فطين، وفجأة وجدت مُدير شركتنا فوق رأسي، يصرخ بأعلى طبقات صوته في وجهي، أما أنا فكنت لا أفهم شيئًا، لوح بخيانتي وأحالني للتحقيق على الفور، ذلك بعدما وقّع على قرار يُفيد بوقفي عن العمل.

- الدكتور رفعت المناويلي: لحظة من فضلك! ما السبب وراء كل تلك التطورات؟

- سأوضح لك، كان هناك بندٌ في العقد حين تم توظفينا في الشركة، كان ينص على أنه لا يجوز لأي من موظفي الشركة ترجمة أية عقود أو مستندات لعملاء غير الذين تتعامل معهم الشركة، من يفعل ذلك يُلغى عقده مع الشركة على الفور كما يحرم من جميع مستحقاته المالية، ربما يكون شرطًا جنونيًّا أو غير منطقي، لكنه كان موجودًا ولم أكسره يومًا.

هل أخبرك بما هو أفضل من كل هذا؟ إنني كنت من أمهر العاملين في مجال الترجمة، أفضل الموجودين في شركتنا، حتى صرت نائبًا لمدير الشركة في سن صغيرة.

- دكتور رفعت: وبديهيًّا كانت الأوراق التي أعطاها لك فطين تخص عميلًا غير الذين تتعامل معهم الشركة.

- بل أسوء من ذلك يا دكتور، كانت الأوراق كلها تابعة لشركة ترجمة أخرى.. تحديدًا الشركة المنافسة لنا.

- دكتور رفعت المناويلي: ماذا؟ لا أفهم!

- سأوافيك شرحًا، كان هذا كله مقلبًا قد دُبر لي من فطين وسعيد، إذ استغل سعيد غيابي ذات مرة وراسل شركة الترجمة المنافسة لنا عبر بريدي الإلكتروني، حيث طلب منهم العمل كمترجم عن بعد مقابل دفع مبلغ من المال، وكي يكسب ثقتهم أرسل لهم عدة نماذج من أعمالي في الترجمة، فوافقوا على الفور، كما قال لهم أيضًا بأنه سيجلب لهم عملاء جدد، مما زاد من تمسك الشركة في التعامل معي، هل تعتقد يا دكتور أن

الأمر توقف هنا؟ بالطبع لا، هناك ما هو أسوأ من ذلك.

استطاع سعيد عن طريق نفس الوسيلة (بريدي الإلكتروني) أن يسرق بعض العملاء الذين نتعامل معهم في شركتنا، أقنعهم بفسخ عقودهم معنا ورشح لهم الشركة المنافسة، وكل ذلك يا سيدي يتم على لساني، وكأنني أنا الذي أراسل الجميع، ولسوء الحظ ونظرًا لثقة العملاء بي، وافقوا على الفور وقد تم الأمر.

أما فطين فكان دوره يقتصر على جلب الأوراق وتوصيلها إلى يدي، حتى أبدأ العمل وسرعان ما نفذ الخطة وقام بإبلاغ المدير الذي جاء وأمسك بي متلبسًا.

- الدكتور رفعت المناويلي: وماذا حدث بعد ذلك؟

- في هذه اللحظات انهرت، لا أعلم لماذا فعلوا بي ذلك، لماذا الأنظار تحيط بي في تلك اللحظات، كنت أنا المتهم، أما عن التفاصيل لم أدركها إلا بعدما عمت الفوضى أرجاء المكان وحدث ما حدث.

- الدكتور رفعت: هل تسمح لي بسؤال يا عزيز؟ اعذِر فضولي المسكين، كيف اكتشفت تلك المؤامرة الدنيئة؟

- بعدما عمت الفوضى في المكتب ذلك اليوم، غادرت حينها متوترًا حتى إنني نسيت هاتفي هناك، وحين أدركت ذلك عدت مرة أخرى لمقر الشركة، لم أجد المصعد شاغرًا فصعدت عن طريق السلالم وقبل وصولي للطابق الموجود به شركتنا، وجدت "فطين" و"سعيد" يدخنان السجائر معًا بينما يتحدثان عن ما فعلاه بي، فخورين بإطاحتهما لي من منصبي، سمعت بأذني هاتين يا دكتور تفاصيل تلك المكيدة الخبيثة، كان ما قيل صادمًا بعض

الشيء، قالوا إنهما لم يحباني يومًا وأنهما طالما حلما بذلك اليوم الذي يتخلصان فيه مني، كان هناك العديد من السباب والشتم واللعن عليّ وعلى شخصي، كذلك لم يخلُ حديثهما من السخرية عني، وقتها تحجرت الدموع في عيني، لم أظرف دمعة واحدة، شُل عقلي وتجمدت الكلمات على لساني، نزلت مهرولًا تاركًا هاتفي هناك، مقررًا ألا أعود أبدًا إلى ذلك المكان.

كان في رأسي ألف سؤال واستفهام، لماذا فعلا بي ما فعلاه؟ كنت أكن لهما كل الحب والتقدير وأَكَنَّا لي الكره والحقد!

تربطنا صداقة منذ سنوات فماذا حدث الآن؟ هل كنت أعيش في وهم طيلة تلك السنوات أم هما اللذان خبئا عني حقيقتهما البشعة؟ لم أكن أعي شيئًا وكل ما أدركته حينها هي تلك الطعنة التي شعرت بوخزها في قلبي.. كنت أتوجع ألمًا يا دكتور.. لم يجِب أحد عن أسئلتي ولم يهدأ عقلي لحظة من بعدها، في هذا اليوم فقدت عملي وأصدقائي وعقلي معًا.

أحيانا يا دكتور رفعت تكون الحقيقة قاسية حقًّا، وفي أحيان أخرى تكون كلفافة التبغ التي تقع وسط أكواما متراكمة من القش، فتحرق كل ما حولها وحينها فقط يُفتح سرداب الأسئلة إلى الأبد.

رحلت هذه المرة عن العيادة وأنا مكبل بالهموم والأوجاع، فكلما استرجعت تلك الأحداث المؤسفة شعرت بألم تلك الطعنة مرة أخرى في قلبي، عجبًا لهذا الضعف الإنساني الذي يحل على المرء فجأة، إذ خُذل أو خِينَ أو غُدر به من طرف أحدهم.

ما زلت لا أعلم مدى فاعلية ما أقوم به حتى هذه اللحظة، بدأ كل شيء حولي يزداد ثقلًا، لم يتبقَّ لي أي من الوسائل، باتت هذه هي الطريقة الوحيدة.. لقد جربت كل السبل، لا شيء يجدي نفعًا، إن الأمور تزداد صعوبة وسوادًا يومًا تلو الآخر، أشعر أنني أفقد عقلي ببطء شديد..أكاد ألمس ذلك.. اسمي عزيز توفيق وأبلغ من العمر ٣١ عاما.

" صباح الخير ابني العزيز عزيز"

قالتها أمي وهي تزيل الستار عن نوافذ غرفتي لتلامس أشعة الشمس جفني وأفتح عيني ببطء فأشعر وكأنني مصاص دماء يحترق.

- ما هذا يا أمي الذي تفعلينه؟

قُلتها متأففًا.

أمي: أطرد عنك الظلمة والسواد لعل البهجة تعود إليك من جديد.

- البهجة لن تعود هكذا يا أمي، ثم ما هذه الرائحة التي أشمها؟ أعرف تلك الرائحة.. إنها.. إنها بخور ومستكة!، حقًّا؟!

أمي تظن أنه قد مسني شيطان أو ربما أكون ملبوسًا من قبل أحد أباطرة الجان على الأرجح! لا مريض اكتئاب، نطقتها متمتمًا.

نهضت من سريري تاركًا أجواء الزار هذه، قبلت يد أمي وتناولنا الفطور معًا ثم هممت بنفسي خارج المنزل متجهًا إلى الشارع.

في حقيقة الأمر، لم يكن لدي عنوان محدد أو وجهة بعينها لأقصدها، أنا الآن عاطل عن العمل، أرسل سيرتي الذاتية في كثير من الأحيان لبعض الشركات كما أقوم بالتقديم على الوظائف عبر الإنترنت، لكن لم يعرني

أحد الاهتمام حتى هذه اللحظة.

إنني لا أستطيع أن أرى نظرات الحسرة في عيون أمي، إنها تبكي طيلة الليل والنهار حزنًا على حالي، تعتقد أنها تفعل ذلك سرًّا وأنني لا أدري، لكنني رأيتها ذات مرة تنظر إليّ في حزن شديد بينما أنا جالس على أريكتنا، أضع يدي على خدي، هائمًا في اللا شيء، لا أنطق حرفًا واحدا، رأيت دمعاتها تتسرب دمعة تلو الأخرى على خديها في صمت موجع، في ذلك الوقت كانت أمي واقفة في المطبخ، تقوم بطهي الطعام كعادتها ولكن الحقيقة أنه في أثناء هذه اللحظات كان قلبها هو الذي يعتصر ألمًا ويُطهى على نارٍ هادئة.

على كل حال إن خروجي من المنزل لفترات طويلة يخفف من حدة الأوضاع، ثم إن التجول في شوارع مصر الجديدة ممتع إلى حد كبير، أتجول اليوم هنا وغدًا هناك وبعد غد في ناحية أخرى من نواحي حيّنا وهلمَّ جرة، لقد أصبحت أحفظ أغلب الطرق والشوارع عن ظهر قلب.. بطريقة ما أحاول كسر الروتين.. أو ربما أهرب من الهوس.. على الأرجح إنني أمد في صلاحية عقلي قبل أن يُتلف نهائيًّا.

و أخيرًا وبعد طول انتظار.. جاء يوم السبت..

بتُّ أجد شعورًا مريحًا عندما يحل ميعاد الجلسة، لا أعلم إن كان هذا دليلًا على بداية التعافي والشفاء أم أنني فقط وجدت من يُنصت لي دون تذمر وانزعاج فأشعر بالهدوء؟ لا أدري، لكنني أرى أن الأمور تسير على ما يرام، أكثر مما ظن عقلي البائس.

ذهبت في الموعد إلى عيادة دكتور رفعت المناويلي وهناك فوجئت بأنها قد عُلقت ورقة صغيرة صفراء اللون على باب الشقة، كُتب فيها: "جلستنا اليوم يا عزيز ستكون بمقهى الأدباء في الشارع المجاور للعيادة".

ياه، يبدو أن هذا الطبيب لديه أسلوبه الخاص به، وهذا ما يثير إعجابي كي أكون صادقًا، تركت مكاني على الفور واتجهت نحو المقهى المذكور، فوجدت الدكتور رفعت في انتظاري.

- دكتور رفعت المناويلي: أهلًا أهلًا..كيف حالك يا عزيز؟

أنا: الحمد لله، لماذا نحن هنا يا دكتور؟

- دكتور رفعت: حتى يكسر كلانا الروتين يا عزيز، إذا بقينا في نفس المكان كل جلسة سنُصاب أنا وأنت بالهوس، سنضطر للبحث عن طبيبٍ آخر حتى يعالجنا.

أنا: أتعلم يا دكتور أنت لديك أسلوب مختلف، وهذا ما يعجبني.

- دكتور رفعت المناويلي: كل شيخ وله طريقته كما يقولون.. ها احكِ لي ماذا فعلت في الأيام الماضية؟

- أنا؟ لا جديد يُذكر.. ما زلت على حالي، أفكر في معانٍ عديدة وأسأل نفسي لماذا أنا هنا؟ كيف حدث ما حدث؟ ولماذا أقدمت أنا على خطوة الطبيب النفسي؟، لا شيء.. أدخل في جدالات طويلة مع نفسي تنتهي بإرهاق كلينا والوصول إلى اللا شيء.

أحيانا أشعر بأن الأمر يزداد سوءًا، صار البكاء وحدي ليلًا ونهارًا طقسًا يوميًّا، وباتت مغالبة دموعي في الشوارع والمواصلات والأماكن العامة وكذلك أمام أمي أمرًا روتينيًّا.

أصبح السؤال عن أحوالي من قبل أي شخص يصيبني بالفزع ويجعلني أود الصراخ بأقوى طبقات صوتي علوًّا.

- دكتور رفعت المناويلي: تماسك يا عزيز ! لا نريد أن يُفزع أحد من الجالسين حولنا، وكما ترى أن أغلب من في المقهى من المسنين، أقلهم يتجاوز السبعين ربيعًا، إن شعروا بتلك الانفعالات قد يظنون بأن هناك كارثة حلت.

- هناك مشكلة أخرى يا دكتور..

كلما أردت الهروب من عقلي وأفكاري استدعت ذاكرتي كل ما هو سيئ ومحبط، ربما حدث أو موقف مثير للتوتر، كلمة جارحة قد أُلقي بها في وجهي، كل ذلك يُستدعى بقوة، فأسقط أسير تلك الذكريات ولا أستطع التماسك، تغلبني دموعي ويدق الألم قلبي، ثم أرفع رأسي إلى السماء وأسأل الله: " متى الراحة؟"، أعود للبكاء والنحيب مرة أخرى، فيوسوس لي الشيطان فيشعرني أن الراحة في الموت ولكنني أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم سريعًا، وأمكث مستغفرًا حتى تختفي تلك الأصوات الشيطانية.

شعرت بكل ما هو سيئ، كرهت نفسي، حتى إنني كنت أقول ربما أنا لا أستحق سوى الأذى والحزن ولكن سرعان ما أعود إلى صوابي وأقول لروحي، من منا يستحق أن يشعر بالدونية؟ من منا يستحق بأن يعيش منبوذًا وحيدًا؟، كلنا نستحق شيئا أفضل في هذه الحياة.

- دكتور رفعت: أتفق معك كل الاتفاق ولكن في كثير من الأحيان نشعر بالسوء تجاه أنفسنا ليس لأننا سيئون بالفعل بل لأن الجمع من حولنا هم السيئون، فنشعر حينها وكأننا شيء غريب يعيش بينهم، دعني أوضح لك

الصورة أكثر، يا عزيز إن الصحيح قد يرى شاذا وسط الملايين من الأخطاء..

تن..تن..تن

ها هو منبه الهاتف، يعلن انتهاء جلستنا يا عزيز.

- أنا أكره ذلك المنبه يا دكتور، دومًا ما يطلق نغماته في أوقات حرجة من الاسترسال، هل يضطهدني؟

- دكتور رفعت المناويلي: ها..ها..ها، لا تقلق موعدنا غدًا في التاسعة صباحًا.

عدت إلى المنزل وتناولت العشاء مع أمي ثم خلدتُ إلى النوم، ودعوت الله بألا أستيقظ إلا على موعد الجلسة الجديدة صباح الغد.

نمت كما لو أنني لم أتذوق طعم النوم منذ زمن بعيد، هذا صحيح حيث أنني أعاني الأرق والكوابيس، فإن سنحت لي الفرصة وزارني النوم في ليلة من الليالي، يكون كريمًا متقطعًا.

استيقظت فجأة على صوت غريب في منزلنا، ما هذا الساعة الواحدة ظهرًا!

لقد فاتني موعد الجلسة، يا رباه، ماذا حدث؟! هل غفوت إلى حد الغيبوبة؟

خرجت مهرولًا إلى الصالة لأسال أمي لماذا لم تأتِ وتزيح الستار كعادتها وتوقظني من نومي، وهناك فوجئت بمشهد غريب، رأيت الدكتور رفعت المناويلي جالسًا على أريكتنا الموجودة في صالة منزلنا، يتحدث مع أمي، الدكتور رفعت في منزلي؟ لماذا إذًا؟

أمي: نومًا هنيئًا يا عزيز، تبدو وكأنك حصلت على قسط كبير من النوم أخيرًا بعد سنوات، اذهب سريعًا واغتسل ثم تعالَ وانضم إلى مجلسنا.

ارتديت ملابس ملائمة وعدت إلى الدكتور رفعت، وجدته قد انتقل إلى شرفتنا الصغيرة المطلة على الشارع منتظرًا هناك، وسرعان ما جاءت أمي حاملة بعضًا من فطائر التفاح الشهية مع أكواب الشاي.

- أهلًا دكتور، دعني أسألك ماذا جاء بك فجأة إلى هنا؟

دكتور رفعت المناويلي: أهكذا يكون الترحيب بالضيوف؟، لا شيء، أنت لم تأتِ في الموعد المتفق عليه، ففكرت أن آتي إليك أنا بنفسي.

- حقًّا؟ هل أصبح الطبيب النفسي يقوم بتوصيل خدماته إلى المنازل هذه الأيام؟ لا تستخف بعقلي يا دكتور، شككت بي، أليس كذلك؟ ظننت بأنني قد أكون مسست نفسي بسوء، أو انتحرت على سبيل المثال!

- دكتور رفعت: هذه هي المشكلة يا عزيز، أنت دائمًا ما ترى الأمور من زاوية واحدة وأحيانا من ركن في غاية الضيق، حتى إنه لا يتسع سوى لحدقة عينيك أنت فقط، وبناءً على ذلك وجهت لي تلك النظرات الحادة المطوية داخلها سهام سُنت أطرافها بالاتهامات الواهية، تذكر يا عزيز أنا لست ضدك على الإطلاق، أنا هنا لمساعدتك، لا داعي لتضيع الوقت في مثل تلك المجادلات.

- أنا.. أنا آسف، أعذرني يا دكتور، أحيانا لا أستطيع السيطرة على انفعالاتي، فتبدو أكبر من الموقف نفسه.

- دكتور رفعت المناويلي: لا..لا، لا تتأسف، نحن بشر، نمر جميعنا بحالات كهذه وبضغوط كثيرة، نختلف فقط عن بعضنا البعض في التعبير

وفي أساليب الخروج منها، ربما كذلك في المدة التي نستغرقها، أما الآن فلا أريد منك الحكي والسرد كما نفعل في العادة.

أنا: لماذا؟!

دكتور رفعت: لنقم بشيء ترفيهي اليوم، قل لي هل تجيد الشطرنج؟

أنا: أوه هاوه.. هذه لعبتي المفضلة يا دكتور.

دكتور رفعت المناويلي: إذن، فلنبدأ ولكن دعنا نتفق أولًا، من يفوز منا في هذه الجولة، يدين للآخر بطلب واجب النفاذ.

أنا: إذا، هيئ نفسك للهزيمة يا دكتور.

كش ملك..

قالها الدكتور رفعت مهللًا معلنًا انتصاره.

أنا: هذا حظ المبتدئين يا دكتور، لا تتعود على مثل تلك الانتصارات.

دكتور رفعت المناويلي: أنت مدين لي بشيء يا عزيز، هل تتذكر اتفاقنا؟ سأطلب منك أمرًا وعليك تنفيذه.

أنا: وماذا تريد يا ترى؟

دكتور رفعت: أريدك أن تقوم بتكوين صداقة ما مع أي شخص تختاره، المهم أن تأتي الجلسة القادمة وقد أنجزت مهمتك، وموعدنا القادم سيكون بعد أسبوع من يومنا هذا.

اعتبر هذا الطلب واجب منزلي كما يسمونه في المدارس يا عزيز، لا أقصد بطلبي هذا أن تكون الصداقة هذه علاقة وطيدة أو قوية، لا بل مجرد أن تتعرف على أي شخص تختاره، علاقة سطحية لا أقل ولا أكثر من ذلك، وستحدثني عن النتائج في الأسبوع القادم، أما الآن فاسمح لي

بالمغادرة.

أنا: لا أعلم يا دكتور، هل سأنجح في مهمتي هذه أم لا؟، ولكنني أستطيع أن أعدك بأنني سأحاول على كل حال.. شرفت يا دكتور.

لم أكف عن التفكير لحظة واحدة منذ أن غادر الدكتور رفعت منزلنا، ظللت أسأل نفسي كيف لي أن أنفذ ذلك الطلب؟، كيف لي أن أكون صداقة جديدة؟، إنني لا أستطيع التعامل مع نفسي وقد قُطعت الصلة بيني وبين البشر، فكيف سأواجه العالم الخارجي مرة أخرى؟

أنا أدرك حقيقة نفسي، يعرف كل مريض بالاكتئاب أنه يعاني شيئًا ما أو ظاهرة غير طبيعية، نشعر بالاختلاف ونجاهد أنفسنا في كل لحظة حتى نصل إلى سبب المعاناة التي نمر بها وكذلك نعكف باحثين هنا وهناك عن أجوبة لأسئلتنا، قد نلجأ لأي شخص أو وسيلة ربما نجد فيهما التفسير والخلاص ولكننا في النهاية نتعثر، حتى وإن وصلنا، فلا نجد تلك الإجابات التي تهدئ من روعنا وتنقذنا مما نحن فيه.

أصبح كل شيء خارج حدود منزلي يبدو لي مخيفًا، هذه إحدى الحقائق التي لم أكن أعلمها من قبل، في المنزل أنت في مكانٍ آمن تمامًا، مُحاط بأفراد عائلتك الذين لن يتمنوا لك سوى الخير، لن تجد بينهم خائنًا أو حاقدًا، لن تُدبر لك المكائد في منزلك، لن تتعرض لأي نوع من أنواع الأذى النفسي، ببساطة شديدة كل شيء داخل المنزل يكون على ما يرام، وإن لم يكن كذلك، فأنت سيئ الحظ، تعس الحال، كان الله في عونك.

أعلم جيدًا أن تلك المهمة ستكون بمثابة العمل الشاق بالنسبة إليّ، لكنني لا أحب النكث بالوعود والعهود، لقد قُلت للدكتور بأنني سأحاول،

سأفعلها وكل ما عليّ التفكير فيه الآن، هو وضع خطة للبدء.

ماذا سأفعل الآن.. وجدتُها.. لدينا جار، يسكن في شارعنا، تحديدًا في المبنى المقابل لنا، في مثل سني إن صح ظني، لكنني دومًا ما ينتابني شعور بالريبة تجاهه، أشعر بأنه غريب الأطوار، فهو يسكن في شقة مخالفة فوق سطح المبني، بناها صاحب العقار في غفوة من الحي والحكومة، حتى يستفيد من تأجيرها للطلاب الوافدين والعمال الأجانب ولكن الرجل مؤخرًا بات يؤجرها لأي شخص مقابل حِفنة من النقود، يسكنها جارنا هذا منذ عامٍ ونصف، لا أعلم ما هي وظيفته ولكنه يخرج من منزله عصرًا ويعود عند بزوغ الفجر، لم أرَ له عائلة أو أصدقاء، لا أحد يزوره قط، قليل الكلام جدًّا، حتى إنه ذات مرة ذكر صاحب العقار أمامنا بعد انتهاء صلاة الجمعة بأن ذلك الساكن يخيفه ويرميه بنظرات حادة، تلقي بالفزع في قلبه عندما يطرق بابه ليطلب منه الإيجار، أعتقد بأنه يُدعى (عمرو).

مر أسبوع....

أنا : مساء الخير يا دكتور رفعت.

دكتور رفعت المناويلي : بطلنا الهُمام، أهلًا أهلًا، تفضل.

أنا: لن تصدق! فعلتها يا دكتور، تعرفت على جارٍ لنا.

دكتور رفعت: كنت على يقين بأنك ستستطيع يا عزيز، أقسم لك لم يكن لدي أي شك حيال ذلك الأمر.. قل لي كيف فعلتها؟ إنني أحترق شوقًا لسماع التفاصيل.

أنا: بحثت في البداية عن شخصٍ مناسبٍ لتلك المهمة، فوجدت "عمرو" وهو جار لنا، في مثل سني، يبدو غريب الأطوار قليلًا ولكن ما شأني

في ذلك، حظي ليس تعسًا حتى يكون الرجل قاتلًا متسلسلًا، يخافه الجميع في شارعنا، ربما أنا أيضًا أصبح مخيفًا ذات يوم، لا أحد يعلم ماذا تخبئ لنا الأيام في جعبتها، لذلك أنا لا أخشاه مثلهم، انتظرت أن تأتيني الفرصة لأبدأ مهمتي، لكنها لم تأتِ، تأخرت كثيرًا، فقررت باختلاق فرصة.

خطر على ذهني أن أشتري علبة من الحلويات وأذهب لزيارته بحجة حقوق الجيرة وما يشبه تلك القيم المعسولة التي لا يتبعها أحد، لكنني سرعان ما عدلت عن تلك الفكرة الساذجة، حيث خشيت أن أبدو مريبًا.

دكتور رفعت المناويلي: تفكير سليم ومنطقي، لو كنت مكانه لتوجست منك خيفةً إن فعلت ذلك.

أنا: رأيت ذات يوم جارنا (عمرو) ذاهبًا لشراء بعض المستلزمات من البقال الموجود في العقار المجاور لنا، نزلت مهرولًا إلى هناك وعندما رأيته، سألت عن فكة مائتين جنيه ووجهت سؤالي له بعدما بحث صاحب البقال عن الفكة ولم يجد، وهنا عرفته بنفسي وسألته عن أحواله، ثم رحلت وأنا أحلق في سعادة بالغة، شعرت بلذة الانتصار والفخر لأنني قد أديت واجبي، وكأنني تلميذ أنجز دروسه وذاكرها سريعًا ثم ذهب ليلعب بعدما أدى ما عليه من مسئولية.

دكتور رفعت: هذه أخبار سارة يا عزيز.. أنا فخورٌ بك.

أنا: أتمنى يا دكتور أن يكون نجاح تلك الخطوة مؤشرًا على بداية الشفاء.. أنا.. أنا أريد العودة إلى حياتي الطبيعية.. لا أريد كل ذلك الحزن.. أريد أن أتخلص من ذلك الشيء الجاثم فوق صدري.. إنه يمنعني من الحياة.. من الاستمتاع.. من كل شيء.. لم أكن يومًا السبب في استدعائه

ولكن البشر من حولي فعلوا.

أتعلم يا دكتور؟ أحيانًا أشعر بآلام شديدة في مناطق متفرقة من جسدي، في كل مرة يفاجئني الألم من ناحية جديدة، لا أعلم سبب ذلك الألم، شككت في نفسي وانتابني الخوف، فذهبت لعدة أطباء وأجريت فحوصات شاملة للاطمئنان، لم يجد الأطباء أي سبب لتلك الأعراض، يخلو جسدي تمامًا من الأمراض، هل تلك الآلام قد تكون ناتجة عن الاكتئاب؟ أعني هل تؤثر حالتنا النفسية على باقي أعضاء الجسد؟

- دكتور رفعت المناويلي: بالطبع يا عزيز، كثيرًا ما يتخفى مرض الاكتئاب وراء قناعٍ مزيفٍ، قناع آلام المعدة على سبيل المثال أو القلب والظهر، كذلك من الممكن أن تتطور حالة المريض، فيصدق ما فيه من وجع حتى يتفاخم بعد ذلك، صدقني يا عزيز لن يدرك أحد كم هي تلك الآلام مُعذبة ومهلكة إلا من مر بها.

أنا: هذا صحيح، مع الأسف هذا لا يعرفه الكثيرون.

دكتور رفعت: ما رأيك أن نقوم بتجربة شيء مختلف الجلسة القادمة؟

أنا: ليس لدي مانع، بل يبدو لي هذا جيدًا وممتعًا.. هل فكرت في شيء؟ أم نقوم بالبحث سويًّا؟

دكتور رفعت المناويلي: لا ليس بعد، على كل حال من يصل منا إلى فكرة فليرسلها للآخر في رسالة.

أنا: اتفقنا، أراك بعد غدٍ إن شاء الله.

دكتور رفعت: لا تنسَ، في التاسعة صباحًا سيكون لقاؤنا.

لقد باتت هذه الجلسات هي الشيء الوحيد الذي يهون عليّ أعباء تلك الحياة ويخفف عني بعضًا من آلامي التي لا تنتهي وطالما ما شعرت بها.. لكنني أسأل نفسي في نهاية كل جلسة ماذا سيحدث لي عندما تنتهي تلك الجلسات؟ ماذا بعد الدكتور رفعت المناويلي؟

إن الخيال قد يصير أسوأ بكثير من الحقيقة، بل أشد فزعًا ورعبًا، في لحظة ما قد يكون خيالنا المريض هو العدو الحقيقي لنا، فهل تصورت يومًا بأنك تعيش لحظة بلحظة مع قاتل محترف يسعى لتدميرك أنت؟ هنا تصعب الحياة، والنوم ينضم إلى قائمة المستحيلات الثلاث الشهيرة ليصبح رابعهم، تجده يتخذ مقعدًا لنفسه بجوار الغول والعنقاء والخل الوفي، حينها فقط يصبح الهول واقعًا تكاد تلمسه ولا تستطيع التخلص منه أبدًا. إنه بالغ الذكاء، يدق بابك كل ليلة متخفيًا في شكل ما !

تررررن..تررررن

- صباح الخير، دكتور رفعت المناويلي؟

دكتور رفعت في صوت يغلبه النُّعاس: أجل، صباح النور، من المُتصل؟

- أنا عزيز توفيق يا دكتور، هل لنا أن نتقابل الآن، أعلم أنه قد يكون طلبًا في غاية السخف، بل على الأرجح هو كذلك، ولكنه أمر ضروري.

دكتور رفعت المناويلي: عزيز ! ماذا بك، هل كل شيء على ما يرام؟ أخبرني سريعًا هل والدتك بخير؟ نحن في السادسة صباحًا يا عزيز ماذا حدث؟

- هدئ من روعك سيدي الفاضل، الأمور على ما يرام، كل شيء يسير بدقة وبإسلوب جيد، إلا أنا.

دكتور رفعت: سأرتدي ملابسي واجعلنا نتناول الفطور معًا في أي مكان تختاره.

- إذن سأحضر بعضًا من ساندوتشات الفول والفلافل من مطعمٍ هنا في مصر الجديدة، ولنتناول الفطور بمحاذاة كورنيش النيل، أعتقد أنك تسكن بجواره أليس كذلك؟

دكتور رفعت المناويلي: نعم، اتفقنا، أراك هناك بعد ساعة من الآن.

يوجد بجوار منزلنا مطعم للفول والطعمية، في الحقيقة هي عربة بسيطة ولكنها تمددت وتوسعت حتى صارت مطعمًا ضخمًا يسمى (كل واشكر)، يمتلك هذا المطعم سحرًا خاصًّا ومذاقًا مذهلًا، فالفول يُطهى جيدًا والفلافل تُغطس في الزيت الغزير وكأنها شخصًا قد قفز في حمام سباحة، فتخرج مقرمشة الحواف رائعة الطعم، أما البطاطس فحدث ولا حرج تتمتع عنده بلون ذهبي خالص لم أرَه من قبل، طلبت بعض الساندوتشات مع المخلل والطحينة واتجهت مسرعًا إلى الدكتور رفعت.

دكتور رفعت المناويلي: كيف حالك؟ هل أنت بخير؟ ماذا بك؟

أنا: مرحبًا يا دكتور، في الحقيقة لا، لست كذلك، سأحكي لك ونحن نتناول الفطور.

إنني رأيت الهول بعينيه هذه المرة، ليست مجرد كوابيس عادية على الإطلاق، ليست من ذلك النوع الذي ألفته روحي والذي أصبح لا يثير ذعري، لا يا دكتور إنه الهول حقًّا، صحوت فجرًا مفزوعًا من نومي، كان هناك ألم في صدري حتى ظننت أنها النهاية وكأن شيئًا ثقيلًا جثم عليه لفترة طويلة! لقد أصبحت الكوابيس أكثر شراسة ورعبًا، أنا لا أريد أن أغفو ثانية بعدما رأيت ما رأيت، أنا خائف أكثر مما يبدو علي، ربما يكون القادم أسوأ وأشد فزعًا، لماذا؟ لماذا لا أعيش حياة طبيعية؟ لماذا تطاردني الكوابيس أينما ذهبت؟ لماذا لا أرى سوى الكوابيس؟ أتعلم يا دكتور؟ لم تكن كوابيسَ مفزعة فقط، بل أكاد أجزم بأنني رأيت شبحًا مفزعًا يرتدي عباءةً سوداء يطوف أنحاء غرفتي، يحمل فأسًا ضخمًا يلمع من شدة حدته، لم أرَ تفاصيل ملامحه فكانت عباءته ذات غطاء للرأس، لكنني رأيت العينين، كانتا مجوفتين مخيفتين، لم ينطق سوى بهمهمة لم أفهم منها شيئًا وكأنها لغة غريبة لا ندركها نحن البشر، ظل يقترب مني ويهمهم ويتمتم وأنا أتعرق خوفًا، ثم يبعد فجأة، ثم يأتي ويقترب ثانية، ثم يتركني ويطوف بالغرفة، لم تكن لديه أقدام فقط يدين.

هل جنٌ جنوني يا دكتور؟ ما هذا الذي رأيته؟ إنني لا أهذي، أقسم لك يا دكتور إنني رأيت كل ما حدثتك به.

دكتور رفعت المناويلي: تماسك يا عزيز، كُف عن البكاء أرجوك، تذكر بأن كل داء وخلق الله له الدواء، خذ بكوب الماء هذا وحاول أن تهدأ.

أنا: هل هناك دواء للكوابيس يا دكتور؟ هل كانت هذه هلاوس؟ هل لها دواء؟

دكتور رفعت: بكل تأكيد، اسمح لي أن أقول لك شيئًا، قد يخفف عنك الأمر ولو لبعض الشيء، أحيانًا يا عزيز إذا أُصيب الجسد بفيروس، يحاول الفيروس المقاومة والاستمرار في تدمير جسد الإنسان، وعلى الجانب الآخر يكون الجسد قد لم شتاته وبدأ في محاربة ذلك الفيروس الدخيل، فهو بمثابة عدو يهدد أمن وحياة الجسد، دعني أكون أكثر وضوحًا، بعد عدة جلسات لنا، لا أستطيع أن أنكر، أنت فعلًا مصاب بمرض الاكتئاب واهتزاز الثقة، لكننا نحاول العمل على ذلك سويًّا بل إننا ننجح في الأمر، قد بدأ العلاج ينجح حينما أتممت خطوة التعرف على جارك هذا، كان ذلك دليلًا واضحًا على النجاح والتقدم ولهذا السبب، استيقظ فجأة عقلك الباطن، وقرر أنه لن يستسلم بسهولة.

أنا: لا أفهم، عقلي الباطن؟ استيقظ؟ لا أفهمك يا دكتور.

دكتور رفعت المناويلي: إنه ذلك الجزء الذي لا تعرف عنه شيئًا بينما هو يعرف عنك كل شيء، يراك من حيث لا تراه أبدًا، يتحكم في الكثير من أفعالك وأقوالك، ربما يتسلل أيضًا إلى أحلامك كما يحدث معك يوميًّا، إنه أنت، أنت على حقيقتك، دون تزييف أو أقنعة أو رتوش، أنت ذلك الإنسان دون تجميل فقط إنه الحقيقة والوهم معًا، وكأنه إنسان آخر يعيش داخلك، كل منكما له عالمه الخاص وقوانينه وقواعده، أي أنك اثنان في واحد، إنسان بداخله إنسان، أحدكما ظاهر والآخر مستتر يتخفى بين طبقات تفكيرك، لكن مع الأسف الشديد أنكما متلاصقان، لا حياة لأحدكما دون الآخر.. لست وحدك ولكن هذه هي طبيعة البشر.

أنا: هل يريد قتلي ذلك اللعين؟ هل سيدمرني؟ كلامك هذا يا دكتور أصابني بالاندهاش، كيف للإنسان أن يدعي ببساطة شديدة أنه قد فهم كل شيء على هذه الأرض وحل كل الألغاز والطلاسم المتعلقة بالنفس البشرية وهو لم يفهم نفسه أولًا!

دكتور رفعت: لا.. لا تقلق، لكن المهم الآن أن تستمر في المقاومة وألا تستسلم، مع مرور الأيام سيخضع عقلك ويتقبل الأمر، وسيأتيك الشفاء متوددًا إليك، وذلك الظلام المخيم على حياتك سينقضي وسيحل مكانه ضوء الحرية والانتصار، ستشرق شمسك من جديد يا عزيز، ستتحرر من قضبان سجنك، هذه مهمتي وهذا عملي، أعدك بذلك.

كان الدكتور رفعت طبيبًا ماهرًا، يثق في قدرة مرضاه على الاستمرار والمقاومة ربما أكثر مما يثق بنفسه كطبيب نفسي، وذلك كان سببًا أساسيًّا في قدرته على علاج مرضاه ومساعدتهم على تخطي أزماتهم.

لقد ظللت أقاوم.. كنت أفقد الأمل كثيرًا.. أصابني اليأس مرات ومرات.. أحيانًا كنت أقول لنفسي البائسة ستعيشين في الظلام إلى الأبد.. لن ترِي الضوء مرة أخرى.. ستظل الكوابيس رفيقتك أيتها الروح التعسة ما دمتِ حية.

و رغم كل هذا لم أستسلم، لقد اتخذت قراري بالمقاومة منذ دخولي إلى الشقة رقم (١٣)، تلك الشقة التي غيرت مسار حياتي إلى الأبد، دخلتها وأنا أنظر للأمور بطريقة هالكة، إن عيني كانت ترى الأشياء ميتة، خالية من الروح، باهتة الألوان، لكنني لم أعد كذلك بعد الآن...

استمرت جلساتي مع الدكتور رفعت المناويلي إلى ما يقرب من عامٍ ونصف، كانت حالتي يُرثى لها، لقد كنت هاربًا، هاربًا من نفسي، من أسرتي، من أزمتي، من الغدر والكذب والخذلان الذين تعرضت لهم في العمل، كنت هاربًا من ذلك العالم القاسي لكنني وجدت نفسي حبيس عالم آخر أشد قسوة.. نعم إن الاكتئاب والكوابيس أشد قسوة من أي شيء، إنك تترك الظروف، الاحتمالات ، الحقيقة والواقع على عتبة هذا العالم المخيف، وما إن تخطو أقدامك بابه تجد كائنات في غاية التوحش في انتظارك، في الواقع إنها متعطشة لافتراسك، لقد دخلت ذلك العالم وحدي، حاولت النجاة، جربت كل السبل، استنزفت جميع الطرق، لم ينقذني سوى صبري ذي البال الطويل وجلسات الدكتور رفعت المناويلي، في هذا العالم المروع ليس أمامك الكثير من الاختيارات فإما أن تختار النجاة أو أن ترضى بالموت، لم ترضِني هذه الاختيارات، فاخترت الهروب بجلدي، ظنًّا مني بأن هذا الطريق أفضل من النجاة، كنت على ضلال، فلم يكن الهروب سوى طريق مقنع للموت، اكتشفت بأنه مسارٌ محاذٍ للجنون وفي نهايته ينتظرك الموت.

إن العلاج النفسي كان خير وسيلة للنجاة، فالشقة رقم (١٣) كانت بمثابة قارب النجاة الذي ظهر لي حين تحطم مركبي في منتصف البحر العاصف.

في آخر لقاء جمعني بالدكتور رفعت المناويلي، طلب مني السفر لمدة شهر، كإجازة احتفالًا بشفائي، خرجت وقتها من العيادة واتجهت على الفور نحو شركة سياحة، واحدة ممن يملؤون منطقة وسط البلد، وحجزت

رحلة إلى محافظة أسوان مُدتها ثلاثون يومًا بالتمام والكمال.

سافرت إلى هناك بغرض الاستمتاع والاسترخاء ولم أكن أدري بأن الله يدبر لي شيئًا آخر، بعد مرور عشرين يومًا من الإجازة، تمكنت من تكوين عدة صداقات مع المرشدين السياحيين المكلفين بإدراة رحلتنا، وذات يوم جاء لي (كريم)، هو مرشد سياحي، يتحدث الإيطالية والإنجليزية بطلاقة، قال لي بأن الشركة التي يعمل لديها تبحث عن مرشد يجيد الألمانية، وكنت قد ذكرت له في بداية رحلتي بأنني عملت لسنوات عديدة كمترجم للغة الألمانية، حدثني عن العرض المقدم وأيضًا عن الراتب، كان عرضًا خياليًّا مغريًا يصعب على أي عاقل رفضه، وسبحان مغير الأحوال من حال إلى حال تحولت فجأة زيارتي إلى أسوان من رحلة محدودة الأيام إلى إقامة شبه دائمة فيها.

قبلت العرض، وأرسلت إلى أمي حتى تلحق بي إلى هنا وعندما اتصلت بها وحدثتها عن الخبر، بكت فرحًا، إنها المرة الأولى التي تبكي فيها أمي فرحًا وليس بدافع الحزن والهم منذ أعوام، فعزمت على المجيء إلى أسوان، لقد تغيرت حياتي أخيرًا وبعد طول انتظار، لم أكن أتخيل بأن شمسي ستشرق من جديد، لقد كف الظلام يده عن حياتي ورحل الحزن عن قلب أمي، نجح الدكتور رفعت في علاجي، وانتصرت أنا على ذاتي، لقد انزاح ذلك الشيء الجاثم على صدري، نجوت مما كنت غارقًا فيه عندما أدركت قيمة نفسي ومبادئي، حينما وجدت إجابات عن أسئلتي، إن الغدر والخيانة والشر باقون، ولدوا مع بداية الخلق ولن ينتهوا إلا بنهايته لكنني تعلمت الآن كيفية مواجهتم والتصدي لهم، ففي الشقة رقم (١٣) تعرفت على نفسي

من جديد، فهمت بأنه لا ينبغي على المرء الهرب أبدًا، كذلك لا يصح للإنسان الإسراف في مشاعره الطيبة لأن ذلك سوف يعرضه للاستغلال من ذوي النوايا السيئة وسيكون هو المتضرر الوحيد حينئذ..أما عن الكوابيس فمواجهتها ستكون عن طريقي العمل والأمل، فكلما زاد عملك وأملك بالغد قلت كوابيسك وتحولت إلى أحلام سعيدة.

* ترن..ترن..ترن..ترن*

أمي: عزيز.. يا عزيز.. أحدهم يتصل بك.

أنا: قادم يا أمي..قادم إليك.

" مرحبًا..

المتصل: كيف حالك يا عزيز؟ كيف حال السياحة هذه الأيام في أسوان؟

أنا: دكتور رفعت؟.. مرحبًا، ما هذا الرقم الغريب الذي تتصل منه؟، لم يظهر لي اسمك على شاشة هاتفي.. كل شيء على ما يرام هنا، الحمد لله السياحة هذه الأيام في ازدياد..إنه الموسم كما تعرف، كيف حالك وكيف حال عيادتك، أما زالت تحتفظ بذلك التُمرجي الغريب؟

استمرت المحادثة بيننا قرابة الساعة، في حقيقة الأمر أنه قد انتهت جلساتي مع الدكتور رفعت ولكن علاقتي به لم تنقطع، إنه يطمئن عليّ من حين إلى آخر، وأنا أيضًا أتصل به لأسأل عن أحواله بين الفترة والأخرى، لقد جعله الله سببًا في شفائي ونجاتي.

في الواقع..

أفتقد الشقة رقم (١٣) بكل ما فيها.. ذلك التمرجي الغريب، الدكتور رفعت المناويلي، الشيزلونج المصنوع من القطيفة، الأريكة الزرقاء والإضاءة الخافتة، تلك الكراسة الصغيرة التي كانت تُدون فيها الملاحظات عني، وأخيرًا ذلك المنبه الذي كان يضطهدني ويقاطعني بجرسه المزعج أثناء سردي لحكايتي.

إنني أكن الكثير من الحب، وأحمل معي كنزًا من الذكريات لذلك المكان الذي سيظل خالدًا في ذاكرتي إلى الأبد.. الشقة رقم (١٣).

تمت

مَرْيَم

ذلك الوحش التعس، لم يترك تلك البريئة تتمتع بطفولتها دون أن يمسها بسوء.. احذري يا مَريَم فالاضطراب قادم إليكِ، احذري يا مَريَم، كم أتمنى لو أنكِ تستطيعين استيعاب كلماتي هذه الآن، لكن على كل حال.. احذري يا مَريَم.

أشرق فجر يوم جديد وفي تمام السابعة صباحًا على أنغام العصافير، جاءت مَريَم إلى دنيانا.

كانت مَريَم طفلة جميلة جدًّا لأبوين متوسطي الحال أو مما يرتقون إلى الطبقة الميسورة، وحيدة ليس لديها أشقاء ولذلك ظفرت بالكثير من الحب والعطاء.

مرت الأيام سريعًا وتلك الرضيعة التي كانت تداعب أناملها في المهد، بدأت تخطو خطواتها الأولى وسرعان ما كبرت وبلغت من العمر ما يؤهلها لدخول المدرسة أي حوالي خمس سنوات وهو السن المسموح به لدخول مرحلة الحضانة أو ال "كي جي" كما نقولها الآن.

بدأت تحضيرات المنزل لذلك اليوم مبكرًا، قبل أسابيع من بدء الدراسة، وتحول الأبوان إلى طفلين في فرحتهما وأصبحا كالأطفال في انتظار العيد، فكل يوم يأخذ الوالدان ابنتهم المدللة لشراء شيء من مستلزمات المدرسة، فقد ذهبوا لشراء الحقيبة المدرسية وظلت مَريَم حائرة بين هذا

المحل وذاك، تُبهرها الألوان والأحجام، هناك المئات من الحقائب ولكنها أخيرًا بعد فحص وتدقيق استقرت على حقيبة بعدما ملأت قلبها الصغير حبًّا. مر يوم تلو الآخر واشترت الأسرة كل الأدوات المدرسية اللازمة والتي كانت مَريَم تجهل معظمها بالتأكيد ولكن ألوانهم المبهجة كانت كفيلة بإدخال السرور على روحها.

كانت هذه الأيام بمثابة أيام عيدٍ وفرح، فالأب والأم يستعدان لبدء المشوار التعليمي لطفلتهما الأولى، وهذه السعادة اكتملت عندما اتصلت بهما إحدى المدارس التي قدما أوراق ابنتهما فيها وأبلغتهما بقبول الطفلة وما عليهما إلا أن يأتيا إلى المدرسة لسداد القسط الأول من المصاريف، كان لوقع هذه المكالمة التليفونية أثر السحر على الأبوين، لم تسعهما الدنيا من فرط السعادة حتى إنهما ذهبا للمدرسة في ذات اليوم التي جاءت فيه مكالمة القبول، ومن حسن حظ هذه الأسرة أن المدرسة كانت تقع في حي قريب من المنزل، مما يعني أن الأب والأم لن يتكبدا العناء في الذهاب والإياب واتفقا على أن الأب سيتولى أمر التوصيل صباحًا قبل توجهه إلى العمل أما الأم فستتولى الإياب ظهرًا إلى المنزل.

و أخيرًا جاء اليوم المنتظر، أول يوم للدراسة فاتحًا ذراعيه لجميع التلاميذ الجدد، حاملًا لهم العديد من المغامرات والعلوم، فثمة حياة جديدة على وشك أن يبدأها الطلاب الآن. وعلى عكس سلوك الأطفال الصغار في أول يوم للمدرسة كانت مَريَم، في الحقيقة لم تكن طفلتنا تهاب الموقف أبدًا لم تكن مثل أولئك الأطفال الذين يبكون ويصيحون صراخًا عندما يتركهم آباؤهم في المدرسة ويرحلون، كانت مَريَم سعيدة، أكثر مما

ينبغي لأنها اليوم ذاهبة للمدرسة وسيكون هذا هو أول تعامل بشكل رسمي بينها وبين العالم، ولكنها لم تكن تعلم أن هذا العالم الكبير ليس باهرًا كما يبدو في ظاهره.

أيقظت الأم ابنتها وألبستها القميص الأبيض ذا الأكمام المُطرزة ثم المريلة الكحلي ومن بعدهما الجوارب البيضاء ثم الحذاء الأسود الذي صنع من أفخر أنواع الجلود، كانت له رائحة نفاذة تدل على حداثته وتملأ الأنف حتى وقبل أن يتم إخراجه من العُلبة، هذا الحذاء كان رمزًا أساسيًّا وحاضرًا في كل بيت، ربما يختلف ثمنه أو الخامة المصنوع منها ولكن هذا الشكل في وقت من الأوقات كان لا بد أن تجده في أي بيت به تلاميذ صغار.

فتحت بوابات المدرسة الضخمة على مصرعيها استقبالًا للعام الجديد، وتوجهت مَريَم ووالداها إلى المدرسة وكعادة أول يوم دراسي كانت الهرجلة وصياح الأطفال بطلين حاضرين في المشهد، أولياء أمور يتجولون في أرجاء المكان ومُدرس ألعاب يحاول ضبط السيطرة على الوضع بصفارة خضراء مزعجة ولكن لا يأبه أحد له، وصوت رفيع مزعج يصرخ في الجميع يأتي من تلك الوكيلة التي تحث أولياء الأمور على الرحيل ولكن لا أحد ينصت لها أو يهتم لما تقول.

عالم جديد وغريب، ومَريَم واقفة في الوسط محدقة بعينيها وتفتح فمها من الانبهار، هذه أول مرة ترى فيها هذا الكم الرهيب من البشر وهذه الأعداد من الأطفال مجتمعين معًا في آن واحد ومكان واحد. تممت والدتها على الطعام التي أعدته لها سابقًا واطمأنت بأن كل شيء قد وضع في مكانه السليم ثم جثت على ركبتيها ووضعت قبلة مليئة بالحب على خديها

واحتضنها الأب وظلا يلوحان لها في أثناء رحيلهما حتى أغلقت المُدرسة باب الفصل، احذري يا مَريَم الاضطراب قادم، احذري يا مَريَم.

كان لظروف نشأة مَريَم تأثير على شخصيتها حديثة الولادة، فتلك الطفلة المُفعمة بالحيوية والنشاط كانت وحيدة، لم تكن تحظى بأشقاء ولم يكن في عائلتها صغار في عمرها، وعلى الرغم من أن والديها لم يُقصرا أبدًا ولم يبخلا بجهدهما في اللعب معها إلا أنها كانت تتوق اللعب مع أطفال في مثل سنها.

كانت مَريَم محبة للكلام، ثرثارة من الطراز الأول، ولكن ليست من النوع الثرثار السخيف بل بسامة وسريعة التأقلم على الناس والأماكن، ما إن تجلس معها إلا وسرعان ما تتخذ مساحة من قلبك لتسكن فيها بشقاوتها وأحاديثها الممتعة، ربما كانت تعوض بتلك الأحاديث عدم وجود إخوة لها وربما كانت تريد تكوين صداقات كثيرة حتى تداوي الوحدة التي تشعر بها، في جميع الأحوال كانت المدرسة بالطبع هي خير مكان ووسيلة لبناء علاقات جديدة وكثيرة.

تعرفت مريم في أيامها الأولى على بعض الأطفال في صفها وعلى البعض الآخر في فصلها، حينها شعرت بسعادة كبيرة، أحبت الحديث معهم وعلى الرغم من سنهم الصغيرة هذا إلا أنه كان لديهم الكثير ليحكوه بعضهم لبعض وهناك من القصص المثيرة والمغامرات ما يودون مشاركته سويًّا، ولكن احذري يا مَريم هذه السعادة لن تدوم طويلًا وهذا الجمع حولك سينحسر وسيتلاشى نهائيًّا، احذري يا مَريَم.

يُقال أنه قد تصبح مريضًا نفسيًّا فجأة، والحقيقة أن هذا ربما يكون

ممكنًا في حالات عدة، تصحو ذات يوم لتجد نفسك شخصًا آخر مصابًا بالعديد من العقد والمشاكل النفسية التي لا تعرف من أين جاءت، هل هي عدوى؟ ربما أصابتك من أحدهم والآن أصبحت واحدًا منهم.. واحدًا منا.

أتمنى لو أن المدارس تقوم بالكشف الطبي على مُدرسيها قبل السماح لهم بممارسة العمل، كما أتمنى لو أنه يتم فحص الجانب النفسي لهؤلاء العاملين في مجال التدريس.

وقع حظ مَريَم العثر في فصل " ميس شكرية"، لم يكن هذا الأمر جيدًا على الإطلاق، كانت مُدرسة في العشرينيات من عمرها، على الأرجح أواخر العشرينيات، ذات بشرة بيضاء ووجه طويل، ترتدي العباءات ذوات الألوان القاتمة ونادرًا ما تلجأ للرمادي أو البيج، كانت ملامحها في غاية الحدة ونظراتها ثاقبة صارمة، وكأن أحدهم التهم فطورها خلسة فلم تجد ما تداوي به أمعاءها المتعطشة للطعام، أنت تعلم جيدًا الصورة التي أقصدها، تلك المرأة التي إذا نظر نحوها البالغ الرشيد لمس شيئًا من السادية فيها، ولكن هل براءة الأطفال قادرة على اكتشاف ذلك؟ بالطبع لا.

في عالم الأطفال، تجد كل الأشخاص جيدين، طيبين، ذلك العالم البسيط الذي لا يعرف ألوان الشرور والقسوة، إن عالمهم مليء بالحب، لا شيء سوى البراءة والطهر. أما نحن، فغارقون في الخطايا، مدنسون إلى أبعد الحدود بالكراهية والعنف.

جاء صباح اليوم التالي، استيقظت مَريَم وهي مبتهجة، يسكن السرور ملامحها لأنها ذاهبة إلى ذلك المكان المليء بالأطفال والمغامرات، هي ذاهبة إلى المدرسة.

تناولت فطورها وارتدت ملابسها بمساعدة والدتها ثم ألقت عليها الأم التحية ووضعت قبلة على وجنتيها ولوحت لها داعية: " ابنتي، أتمنى لكِ يومًا سعيدًا ممتلئًا بالمرح والسعادة ومزين بالصداقات الجديدة"، وبعد هذه الكلمات الرقيقة رحلت مَريَم مع والدها إلى المدرسة.

دخلت مَريَم الفصل وكانت قد سبقتها إليه ميس شكرية، رمقتها في البداية بنظرات حادة ولكن في صمت، لم تقل شيئًا، جلست مَريَم في مقعدها وعن طريق يديها الصغيرتين بدأت تخرج أدواتها من الحقيبة وأثناء تلك العملية، ابتسمت لها زميلتها الجالسة بجوارها، فسرعان ما سألتها مَريَم عن اسمها، فقالت:

" اسمي نور.. نورهان".

وفجأة ودون جرس إنذار صرخت ميس شكرية في وجه الطفلتين:

- ماذا تفعلان؟ تتحدثان؟ أمامي؟ دون خوف من العقاب؟ من بدأ منكما بالكلام؟ انطقا وإلا برّحتكما ضربًا.

أصاب الفزع الصغيرتين ولم يجيباها، ساد صمت لم يتعد الدقيقة ثم قطعته ميس شكرية قائلة:

- لا يهم، أنتِ أيتها الثرثارة القبيحة - أشارت بإصبعها إلى مَريَم- فلتأتي بحقيبتك إلى هنا وتجلسي بجوار صندوق القمامة، خلف باب الفصل مباشرة، هذا هو عقابك، هنا في هذا المكان سيجلس كل من تسول له نفسه أن يحرك شفتيه أو ينطق بالحديث، هذا هو ركن المعاقبين".

انتقلت مَريَم بحقيبتها وأدواتها إلى حيثما طلب منها.

ساد صمت مخيف ورهيب بعد تلك الواقعة، فالجميع الآن خائفون من أن ينال أي منهم تلك العقوبة أو أن يطوله ما طال مَريَم.

احذري يا مَريَم فالاضطراب قادم.

توالت الأيام وأصبحت مَريَم أقل ابتهاجًا وكأنها نبتة يصيبها الذبلان يومًا تلو الآخر، تذهب للمدرسة وتجلس بجوار صندوق القمامة بمحاذاة باب الفصل، لقد تغيرت الأحوال الآن ليس لها أصدقاء ولا يوجد من يقبل صداقتها، الجميع نبذها وهجرها خوفًا من أن تصيبه لعنة ميس شكرية وينتهي به الأمر جليسًا على كرسي العقاب.

لم تبحْ مَريَم بشيء في المنزل، لم تكن على دراية بأنها تتعرض لأشد أنواع العنف والتعذيب النفسي، وربما كان في اعتقادها الساذج البريء أن هذا العقاب محدد المدة وسينتهي أمره وسيعود كل شيء إلى طبيعته، ولكن الواقع كان أسوأ بكثير مما يمكنها تخيله، فكلما ذهبت إلى المدرسة أشارت لها ميس شكرية نحو الكرسي المشؤوم لتجلس عليه، كان عقابًا أبديًّا على الأرجح، ويبدو أن المُدرسة تعاني خللًا نفسيًّا حادًا.

و ذات يوم عن طريق الصدفة، رأت والدة مَريَم مشهدًا غريبًا، أثار دهشتها وأربك مشاعرها، فقد رأت طفلتها جالسة في غرفتها على الأرض، تمسك بقلم شديد السواد وترسم به على بعض الأوراق المبعثرة حولها، في بادئ الأمر ظنت الأم أنه ربما تكون ابنتها ترسم بعض الأشياء لتلونها، انتظرت بضع دقائق خلف الباب الذي لم يكن مفتوحًا على مصراعيه بل مواربًا، واكتشفت أن ابنتها لم تكن ترسم شيئًا على الإطلاق بل كانت تحرك

القلم يمينًا ويسارًا على الورقة في عنف رهيب، تحول كل ما حولها إلى سواد قاتم، حتى إنك إن رأيت الأوراق المتفحمة لظننتها سوداء الأصل لم تكن بيضاء قط !

تأكدت الأم بأن هناك أمرًا ما، ثمة شيء ليس على ما يرام، طاردتها الأسئلة في تلك اللحظة، ماذا حدث لقرة عينها؟ هل أصابها مكروه؟ ما الذي قد يحل بصغيرة في مثل سنها حتى يجعلها تُفحم الأشياء باللون الأسود هكذا؟ هل تسألها مباشرة؟ ما الذي يتوجب عليها فعله الآن كَأم؟

قررت والدة مَريَم أن تذهب إلى المدرسة في اليوم التالي، فالمدرسة هي الشيء الذي جد على حياة تلك الصغيرة، بالفعل طارت إلى هناك وحينئذ رأت الكارثة بعينيها، رأت ابنتها في أشد حالات الانكسار، تجلس حزينة في مقعد كريه وحدها بجانب صندوق القمامة بمحاذاة باب الفصل، بعيدة كل البعد عن بقية التلاميذ، ومن وراء ذلك الزجاج الشفاف لمحت ميس شكرية، ذلك الوحش الكاسر يصرخ في الأطفال:

- "من سينطق بحرف أو يتحدث إلى زميله أو زميلته في أثناء الحصة سيصبح مثل تلك المَريَم، سأجلسه بجوار القمامة سألقي به هناك كل يوم، ووقتها سيكرهه الجميع وسيرسب في كل شيء وسيقع في الفشل بقية حياته".

أصاب الذهول والاستنكار الأم، فسرعان ما اقتحمت ذلك السجن العفن، وأعطت السجان درسًا أمام ضحاياه، أخذت ابنتها واتجهت بها نحو مديرة المدرسة وحكت لها ما رأته وما حل بمريم، نقلتها المديرة إلى فصل آخر، وقررت معاقبة ميس شكرية وتحويلها إلى مجلس تأديبي يفتح

التحقيق في تلك الواقعة، وأكدت مديرة المدرسة لوالدة مَريَم أن ذلك الغول لا مكان له إلا في الغابة بين الوحوش لا في الفصول والمدارس بين الأطفال.

نعم لقد بدأت حياة مَريَم في التحسن، ولكنها قد أصيبت بالاضطراب، شيء ما حدث في نفسها لن يتغير بنقلها من الفصل فقط، بل ربما تحتاج إلى تأهيل نفسي يعيد لها الثقة والطمأنينة من جديد، ربما لم يظهر تأثير حادثة ميس شكرية عليها الآن ولكنه حتمًا سينضح يومًا ما، ربما تلك الواقعة تحولها إلى شخص عدواني بطريقة ما فيما بعد.

أشياء كثيرة وارد حدوثها في المستقبل، نحن لا نلمس بالتحديد ما الذي سيحدث، لكن الاضطراب قد دق باب تلك البريئة والعودة إلى الوراء أو إلى ما كانت عليه قبل أن يلوث روحها بات مستحيلًا، شيء ما قد تغير ولن يعود أبدًا.

و يبقى السؤال قائمًا بذاته، كم نموذج لدينا من ميس شكرية؟

كم من الضحايا سقطوا من أبنائنا دون أن ندري بسبب عنف أو عدوانية أو أساليب خاطئة في التربية والتوجيه؟ هل هم كثيرون؟ هل هم على ما يرام الآن؟ أم أن الاضطراب دُسَّ في نفوسهم وسمم دماءهم؟!

لعلكِ يا مَريَم تكونين بخير وفي أمان الآن، لعلنا جميعًا ننتصر على ميس شكرية التي حتمًا سنمر بمن هم على شاكلتها في طريقنا.

سيظل الصراع الأبدي قائمًا بين فريقنا وبين فريق ميس شكرية، في كل مكان وزمان، يومًا ما ستعلو رايتنا معلنةً انتصارنا وستغيب شمس ميس شكرية بقسوتها ووحشتها المظلمة الظالمة.

تمّت